أحمد ضحية

المطاليق

رواية

إهداء

إلى أسماء راسخة في الذاكرة،
رسوخ دم الشهداء

القسم الأول:

جبل كارناسي

موكل بك ليت الأرض توقف من
مدارها تسكن الأجرام والسُدُمُ
وتستعيد نهايات بداياتها للحظةٍ
تنهض الأكفان والرمم
تستعرض الأرض ما أبقت وما
أخذت منها وما نال من سيمائها العدم
إذن مددت يدي ما اسطعت أمسك
من أذيال ثوبك والأجساد ترتطم
يا سيدى المتنبى أنت تسمعني
إني هنا بمهبٍ منك أعتصم
عبد الرزاق عبد الواحد،
سيدي المتنبئ

١

تمددا على سطح الماء..

تمددا فوق بعضهما، تخفيهما عُشبَة معونة النيل عن أنظارِ الشايب جقندي الذي كان يتابعهما من قيف النهر بقلق..

كانا عاريين إلا من عذابهما.. وحدتهما واحساسهما القاسي بالفقد!.. رويداً، رويداً.. كانت عُشبَة مياه النيل تدنو، وبلطف تداعب ساقي سِت البنات العاريتين..

مُويجة صغيرَّة تتجشأ زبدها في مكامن الألم والبوح والإلتياع..

كانت العُشبَة تحفر عميقاً.. عميقاً تحفر العُشبَة.. عابثة، شقيَّة.. تحمل في رُغوتها الإحساس البطيء.. العميق بالغرَق..

إنزلقت شفتا سِت البنات على شفتي عاشميق، تتحسس لزوجة الماء.. كانت رائحتها النَّدية لحظتها تتسرَّب خياشيمهما، وتبعث فيهما احساساً مالحاً بالخدر..

وعلى القيف.. هناك.. ألقى الشايب جقندي برأسه إلى الخلف، يستعيد وقائع ما جرى، وصوت ودالتويم يدوي في فراغ ذاكرته المنهوبة:

"يقولون أنهم جربوا كل السبل، ولم يعد لديهم خيار سوى الانفصال"

ثم بلع أنفاسه اللاهثة وهو يضيف:

"ماذا نفعل؟"

كانت أزقة وادي الذهب المعتمَّة، لحظتها تقذف من أحشائها، كل الروائح الحادة. العطنَّة، والهواء الممزوج برماد التوتر والقلق، ورائحة الرَّوث الدَّبِقة، وأنفاس النَّهر المضمَّخة في رائحة السمك وعُشبَة معونة النيل وأمبانقيقة وثرثرة الضفادع المختلطة بإيقاعات الواز الحزينة، يتخلل أغنيات أسيانة تأتي من بعيد، لا أحد يدري مصدرها!..

حينها كان السلطان يتربع على عرشه، لا ليناقش هموم الناس والوادي المهدد بالعصف.. الوادي الآخذ في التآكل والتشظي! كان متربعاً لتقديم عروسته الجديدة لأعضاء مجلسه من الجَنكويز القُدامىٰ والجدد، الذين كانوا يَصوّرون له عن الوادي، صورَّة ليست موجودة سوى في أذهانهم!

كانوا يخططون لمزيد من الإجراءات، التي تهدف للحفاظ على سلطة السلطان. فقد كانت سلطتهم رهينة بإستمراره، وهو نفسه كان يعلم أن زوال أحدهما يعني زوال الآخر!..

وهكذا أختاروا لحل مشكلة بقاءهم واستمرارهم في السلطة:

القمع والإغراء.. فمضوا يغرَّون بعض الأهالي للعمل معهم، بعد أن نجحوا في كسب كثيرون منهم، مثل: ميجاوي الزَّبال وبليمي الرَّاعي وبنت ود أب عوا الحنَّانة وآخرون وآخريات كُثُر من أهالي وادي الذهب.

كما أخذ أبوشوتال زعيم الجنكويز، يذلل لجنكويزه كافة العوائق والعقبات، بتصريح مباشر من السلطان، فأصبحت سلطتهم وسلطانهم على الناس، أكبر من ذي قبل.

وهكذا لم يكن ثمّة ما يشغل بال السلطان، سوى التفرغ التام لزوجاته العديدات!

الجنكويز الذين تكاثروا كالنبات الطفيلي، هم في الأصل تلك النَّواة، التي قبل عشرات السنوات، أنشأها بادي الشقيق الأكبر للسلطان جبل الحديد -في (عصر) الشايب الجنزير التقيل- وتعهدها بالرِّعاية، في ذلك الزّمان البعيد، عندما كان يخطط للإستيلاء على السلطنة.

لكن بمرور الوقت كان لإبنه الدود أبو حجل رأي مختلف. فهو على عكس والده بادي، كان يرى في بقاء عمه السلطان جبل الحديد فائدة أكبر، إذا أستطاع التحكم فيه، فلاحاجة له بأن يكون سلطاناً (رسمياً) طالما أنه سلطاناً (فعليا)، فيجني "هو" الثمرات ويتحمل "عمه" التبعات!

وبالفعل تمكن من نيل ثقة عمه السلطان جبل الحديد، الذي كان معجبا بمواهبه، فأطلق يده في البلاد والعباد.

وبعد عشرَات السنوات ورِّث أبوشوتال عن أسلافه البائدين، هذه النوَّاة التي أسسها جده الأكبر بادي وتعهدها من بعده إبنه الدود أبوحجل بالرِّعاية. إلى أن طُوِّرت على عهد أبي شوتال، لتصبح قوَّةً ضاربة وبموافقة السلطان.

وفي الوقت ذاته، الذي كان فيه مجلس السلطان يحتفي بالعروس الجديدة، كان أبوشوتال يجتمع بكبار قادة المطاليق، فيما كانت سوميت والمشردون وقتها، يراجعون خططهم الخاصة بالخطابة في جموع الأهالي، الذين كانوا قد فاض بهم الكيل.

لم يكن السلطان ولا جنكويزه يأبهون لتعاليم الروح العظيمة، ولم تجد كل تلك المحاولات الدؤوبة، التي بذلها جقندي بمساعدة ودالتويم، لإقناع السلطان بتغيير سياساته، وكف يد الجنكويز عن الأهالي. لكن السلطان أبداً لم يُعِر الشايب جقندي أُذناً صاغية، وهو لا يفتأ يكرر على مسامعه، تعاليم الروح العظيمَة:

"لقد أطلعتكم على حقوقكم وواجباتكم، فإذا أردتم أن تكونوا (عيالي) فعليكم ألا تستغلوا معرفتكم من أجل القتل والتدمير (...) محظور عليكم أن تستغلوا ما وهبتكم لأغراض شريرة، وإذا لم تتقيدوا بهذه القوانين، فسوف لن تكونوا (عيالي).."...

وكان السلطان الذي أستولى أبوشوتال على عقله تماماً، لا يخشى شيئا في التنكيل بجقندي، سوى خشيته قومه الرُّحَلْ لذلك إستجاب لنصح أبوشوتال، بتأجيل النَّظر في أمر جقندي، إلى حين استقرار أوضاع السلطنة، التي كانت حواضرها في الصعيد ودار الريح والسافل الأقصى ودار صباح قد بدأت تتململ وتضطرب..

لذا في تلك الصبيحة التي تفجرت فيها الشمس من وراء جُدر التاريخ، لتلقي بنفسها على الوادي البائس، الملتف على نفسه كشرنقة مجهضة.. ارتخت الأعصاب التي تشد الدروب الضيقة، فأخذت تضيق، فيما هتافات المشردون تتعالى.. والناس يتضايرون داخلها ليفسحوا لجموعهم الهادرَّة، المدفوعة بآلافِ الحسرات..

"لقد فات الوقت على فعل أي شيء يجنبنا ما سيحدث، ولكن لنحاول حتى اللحظة الأخيرة، فقد تحدث المعجزة"...

ألقى جقندي بعبارته الجازمة بوجه ود التويم، والتي لا تخلو من أمل ضئيل، وهو يستعيد وقائع الحروبات المفتعلة، التي ظل الجنكويز يشنونها على دار الريح وأقصى السافل والصعيد ودار صباح البعيدة، حيث أصبحت الشمس تشرق من هناك كل صباح منهكة.. ذاوية وأكثر حزناً من حمامات قطع الشك...

كان الجنكويز يشنون هجماتهم بدعوى أنهم:

"أولاد بلد يقوموا ويقعدوا على كيفهم.. فوق رقاب الناس مجرَّب سيفهم!"

إذ أنهم أعادوا إحياء الأشعار القديمَّة البائسة، التي كتبها بادي قبل عشرات السنوات كي يغنيها أبي نافلة والتنقار أشهر مغنّيي الوادي الضَّال، وتم العثور عليها مدونة في الكهف المقدس لجبل كارناسي المهيب، عندما اكتشفه مصادفة ذات صبيحة نديانة، صياد مغرم بصيد الجقور.

لم تسترع إهتمام أبوشوتال أيٌّ من الأحفورات، على جدران الكهف.. كل ما استرعى اهتمامه فقط كان هو بقايا القصائد الركيكة لجدِّه الأكبر بادي، التي كان قد قرر فيها ضرورة التزام كل الوادي مبادئ طائفته المشبوهة، لعراقة أصلهم الشريف وفصلهم، دونا عن خلق الله من أهالي الوادي الآخرين!..

وهكذا بدأت بطون الوادي وأفخاذه وعشائره تتململ، فما كان يشغلهم ليس قضية الأصل والفصل بحد ذاتها، ولكن إستغلال مثل هذا الأمر كرأسمالٍ معنوي، لجنّي مكاسب مادية، على حساب العشائر والبطون والأفخاذ الأخرى...

"لنجتمع بعقلاء الوادي، فلربما نجد عندهم حلاً سريعا"

"لا حل سوى إزالة السلطان والجنكويز. ثم أن العقلاء خائفون.. لقد روعهم الجنكويز، خصوصا أن الشائعات تفيد أن الفتيات اللاتي يتم إختطافهن، جميعهن من بنات الذين يشك أبوشوتال ووجنكويزه في أنهم من المعارضين!"..

"ماذا نفعل إذن؟"

"على أية حال سوميت والمشردون، يقومون بعمل جيد، نأمل أن يحقق ما نتمناه من نتائج"

قبل أن يتخذ جقندي قراره النهائي بالعمل على إسقاط السلطان! مضى يرافقه ود التويم ليقابله للمرَّة الأخيرة.

وجده متربعا على العرش كنَّمر.. كان ثلاثتهم يعلمون أنه نمر من ورق!..

وكان الجنكويز حوله يخدمون الضيوف، الذين لم يكونوا سوى أعضاء مجلس السلطان، وقادة الجنكويز أنفسهم.

تحدث جقندي إلى السلطان في كل شيء:

الفقر والظلم.. تهريب ثروات الوادي من قبل بطانته.. العذراوات اللاتي يختفين في غموض تام.. المعتقلات والتعذيب.. الجفاف والتصحر والقلاقل في حواضر دار الريح والصعيد وأقصى السافل ودار صباح البعيدة، التي أصبحت شمسها تشرق منهكة. متعبة. وكئيبة.. شاحبة كرمل الوادي المعلول.. غزو تجار القِبَلْ الأربعة لأسواق الوادي بالبضائع التي لا يحتاجها الأهالي ولا تفيدهم في حياتهم اليومية..

توطين أضعاف سكان الوادي من أهالي الجوار في الأراضي أسفل النهر.. الحرّية والعدل..

لم يترك جقندي فرضاً ناقصاً وكان الجنكويز يقاطعونه يدحضّون كل شيء، ويعتبرون أن ما قاله لا يخرج عن دعاية المعارضين والخارجين المدفوعين بالحقد والغبائن والأوهام المقيتة، وكان السلطان يتوارى خلف إبتسامة صفراء لزجة.

غضب جقندي، وحاول أن تكتم كلماته ما يشعر به من غيظ:

"جلالتك الجنكويز يغتصبون نساء دار الريح؟"

كان جقندي يظن أن السلطان سيغضب:

"الجنكويز دمنا ولحمنا، وناس دار الريح فروخ وفرخات وده شرف ليهن، فليه عايز تعملوا سُبَّة؟ (كسر) البكر عندهم ما عيب، بل أنهم يكرمون الضيوف بنسائهم!.. ودحين لما الجنكويز يحسنوا ليهم نسلهم يقولو أغتصبونا؟!"

أسقط في يد جقندي الذي أدرك تماما أن لا أمل. دارت الدنيا.. كل الدنيا برأسه.. همّ بقول شيءٍ ما، قطعه عليه دخول أحد الجنكويز، الذي مضى يهمس في أذن أبي شوتال، الذي سارع بدوره للهمس في أذن السلطان، الذي أنفرجت أساريره وهو يتوجه بالحديث إلى جقندي:

"سنحتفي بك الليلة. لدينا حفل راقص على شرفك"

أمعن فيه جقندي النظر طويلا دون أن ينطق بحرف، وكان ود التويم لحظتها يتصبب عرقا، فالرجل الذي يعتبره الجنكويز رجلهم المقرّب من جقندي، كان يحمل روحه على كفه، ويعيش توازناً دقيقاً، ويخشى أن ينكشف أمره في أي لحظة.. لذا أفترقا عند بوابة الخروج وأتجها في طريقين متعاكسين!..

توجه جقندي بعد سلسلة من المناورات التضليلية، إلى جبل كارناسي عبر دروب المدينة الضيقة والمتشابكة. وهناك وجد سوميت وعاشميق وست البنات مجتمعون ببقية المشردين.

أرادوا أن يقفوا لتحيته، فمنعهم بإشارة من يده، وجلس منشغل البال في أحد الأركان يراقب نقاشاتهم، التي كانت تحتد وتهدأ.. وتهدأ وتحتد...

طريق بعيد جداً في نفق الماضي المظلم، تقطعه ذاكرته المنهوبة دون هوادة.. طريق محفوف بصرخات الألم والدماء والخراب والدمار.

كانت سوميت بين فينة وأخرى تختلس إليه النظر، فيما هو يخطط بأصبعه على الأرض طرقا متقاطعة ومتوازية، تعكس أفكاره في هذه اللحظة المشبّعَة بالمخاوف والغموض.

وكان المشردون حول سوميت لا يزالون في نقاشاتهم.

إنتبه للنظرات المختلسة، التي كان عاشميق وست البنات يتبادلانها...

كان الكهف هادئا والشمس خارجة تتسحب بإتجاه دار الريح، وصوت عاشميق في أذن ست البنات يتناهى سرّياً.. لكن هامساً.. ربما كانا يتناقلان الشعارات الجديدة، التي يجب أن ترسمها مجموعتيهما، على جُدُر بندر الوادي.. بعد أن يغفل الجنكويز قليلاً!

أنهت سوميت إجتماعها بالمشردين، وهي تومئ لجقندي برأسها أن يتقدم.

زحف جقندي نحوهم. أطرق لبرهة ثم قال:

"أننا هنا للتعبد والتكفير عن ذنوبنا، ولشكر الروح العظيمة على نعمها الكثيرة علينا (..) لقد بدأتم الآن في تغيير الوادي، ولهذا ستتعرضون لقمع مؤلم، وبإمكانكم تحمل هذا القمع، فتحمل الألم يتعلق بالدماغ وليس الجسد، لكن ذلك يعتمد على مدى إيمانكم بما تقومون به، وإستعدادكم للتضحية في سبيله(...)..

تذكروا أن الألم يجب أن يزرع فينا حب الخير للآخرين، فالرّوح العظيمة دعانا للتسامح والإبتسام في وجوه الناس، وإلقاء التحية عليهم، فقد يخفف ذلك عنهم الكثير مما يحملونه من أحزان..

يجب ألا نحقد على أحد، فقد غفر لنا الروح العظيمة الكثير من ذنوبنا، فلماذا لا نغفر لبعضنا البعض، القليل من الذنوب!...

ومضى جقندي في خطبته المؤثرة يحدثهم عن الإيمان والتطهر وتحمل الألم والشعور بآلام الناس، ثم أبتسم وهو ينهي خطابه وقد خطرت على ذاكرته لحظة مشابهة، عاشها جده الأكبر الجنزير التقيل قُبيل الدمار الثاني بقليل..

وقتها كان الروح العظيمة، قد أنهى خلق كائنات دمار العالم، من ألوان الطيف السبعة التي كان قد مزجها في الحكمة والقوّة، بماء الأخلاق والإيمان.

وعجنها في طين الرَّحمة قبل أن يعرضها لنار الصَّبر، ويغسلها بعد ذلك بأمطار الصدق والحزن والإخلاص، ثم يطلقها على العالم، تحمل بين كتفيها عناصر الطبيعة الأربعة..

تساءل جقندي:

﴿ترى ماذا يعد الروح العظيمة الآن لدمار هذا العالم؟.. دمار هذا الوادي الكئيب الغارق في البؤس والعذاب؟!﴾..

أسر جقندي لنفسه، وهو يمعن النَّظر في وجه سوميت البيضاوي النحيل، حاد الملامح:

"أنها تشبه جَدّتها حجب النور تماماً!"..

كانت تقاطيع وجه سوميت، كالمرسومة بعناية فائقة.. كالمنحوتة بإزميل عاشميق..
سوميت حفيدة حجب النور.. أول فتاة تقع عليها عينا جقندي ويحبها من أول نظرَة في مراهقته الباكرة...
كانت حجب النور إبنة هذا الوادي، أحبت أحد الرُّحَلْ فغادرت معه، وظلّت طوال ترحالهم، تحن إلى العودة والبقاء في موطنها..
هذا الحنّين الذي أرضعته لإبنتها كاكا والتي عندما سنحت لها الفرصة هربت.. عادت إلى هنا.. إلى وادي الذهب، مسقط رأس والدتها حجب النور...
تزوجت كاكا وعاشت حياة هادئة مع زوجها وطفلتها أم كوراك، التي أنجبت سوميت، التي حملت ملامح وقسمات حجب النور وكاكا الخالق الناطق!...
لم تكن حجب النور جدة سوميت، هي الوحيدة التي هربت من حياة الرُّحَلْ بتنقلهم المستمر، فكثيرات غيرها عبر تاريخ الوادي، ظللن إما يهربن ليتزوجن من الرُّحَلْ أو يهربن من الرُّحَلْ ليتزوجن من أهالي الوادي!!..
عندما أخبر جقندي سوميت أول مرة، أن لها ذات ملامح نساء من قومه وكان يعني كاكا ووالدتها حجب النور ضحكت سوميت كثيرا وأخبرته أنهن جداتها، فقد حكت لها أمها أم كوراك الكثير!
فأخذ جقندي يروي لها تاريخ القرابة بين قومه الرُّحَلْ وأهل الوادي..
حكى لها عن كيف هربت جدتها حجب النور، في تلك الليلة البعيدة، عندما حطّ قومه الرُّحَلْ برحلهم على وادي الذهب، فاشترى والد حجب النور سبعة بقرات من أحد الرُّحَلْ ونقده ثمنها كاملاً، وفي منتصف الليل جاء ذلك الرجل. وقف قبالة الزريبة، وصاح بعدة أسماء بتنغيم محدد، فقفزت البقرات خارج السُّور، وتبعته إلى حيث لا يدري أحد!..
كان الرجل قد إختفى والرُّحَلْ قد إختفوا وحجب النور قد إختفت. لم يكن ثمّة أثر لها أو للبقرات أو للرُّحَلْ!...

٢

لم تمض سوى أيام قلائل، حتى أنجز المشردون وسوميت مهامهم بنجاح تام.. فجن جنون الجنكويز وأخذوا يجدّون في البحث عن راسمي الشعارات..

لأول مرة يرون الجنكويز مذعورين وهم يفتشون بيوت النااس عند الفجر..

كانت شعارات بسيطة، ثائرة ومعبرة.. تمكنت من النفاذ إلى قلوب الأهالي الذين كانت دواخلهم تمور بالغضب...

يتذكر الشايب جقندي الآن وقائع كل ما جرى، وهو يرى سنوات عمره تتبدد كزبد الماء، الذي يغطي جسدي ست البنات وعاشميق خلف عشبة معونة النِّيل، الطافية في دعة وحبور على سطح النَّهر..

كان الألم لا يزال يعتصره إعتصاراً لا يحتمل، حتى أنه عندما يفكر في الكلمات، التي تعبر عن الألم، يجدها تتقاصر دون أن تقوى على وصف هذا العذاب المقيم، الذي يحاصره من الجهات الأربعة.. للحد الذي يشعر معه بنفسه ضعيفاً، إلى أقصى حد وبحاجة للمواساة والطبطبة..

يود لو أن كل مواساة الدنيا تتجمع الآن لإختراق آلامه، لتخفف عنه شعوره القاتل بالوحدة والبؤس، الذي يحاصره ويهد كيانه، الذي أصبح كالقلوع والطوَّابي القديمة.. لكنه يخشى فكرَّة اللجوء لأي شخص كي يواسيه، أو يخفف عنه. فمجرد نظرة عابرة في هذه اللحظة، التي تتملكه بحزنها المقيم من عاشميق أو ست البنات، تكفي لتحطيم أسطورته الذاتية كجقندي تماماً..

أسطورة الرُّحَلْ وتعاليم الروح العظيمة.. و.. وكان إحساسا مزمناً ما يتنامى داخله:

أن من قتل سوميت ليس المطاليق بل هو؟!...

عدَّل من وضع رأسه على قيف النّهر، وذاكرته تبتعد أكثر، ترحل إلى ذلك اليوم المطير..

كان المطر قد بدأ يهطل في الخارج. ضُبانة خضراء كبيرة رَّكت على ساقه التي أنحسر عنها جلبابه الفضفاض. اقشعر جسمه وهو يشعر بخطاها بين الشعيرات المتفرقة، تشعل ذلك النداء القديم..

النداء ذاته الذي دفع به إلى المجيء إلى وادي الذهب والبقاء فيه.. يسمعه في حفيف أجنحة الذبابة وخطاها على ساقه النحيل..

يسمعه في زفيف الريح القبلي والخماسين والهبباي والبرق العبادي.. في هُتَّاف الحنين الخفي في أفق حياته الغائمة، التي لا يفتأ يغوِّيها الرِّهاب.. رِّهاب الأيام، ربما.. رِّهاب العمر، ربما.. رِّهاب وجه كاكا التي لطالما حاول نسيانها.. تجاهل وجودها في مكان ما من هذا العالم الموحش.. ربما، ربما...

لكنه الرِّهاب اللعوب يدفعه دفعاً إليها.. يمضي يتبع وجهها المتلفع بالرِّهاب.. تتلاشى فيه، وتتوغل بعيداً بعيداً..

أحب كاكا بجنون، وعندما أراد مصارحتها، كانت قد غادرت المضارب، إلى مكان لا تعلمه سوى أمها حجب النور، وظلت لسنوات طوال تطارده بطيفها، تتحكم في أحلامه، وكثيراً ما أنتزعته من طقوس الروح العظيمة، ليكتشف نفسه بشكل مباغت، يجري طقوس جدع النار و يُصَّلي لها وحدها.. حاضراً بين يديها هي، يتآكله القلق والتوق.. وهكذا استجاب.. قرر البقاء في وادي الذهب..

وفي تلك الصبيحة النعسانة مضى منحدراً إلى الوادي.. عندما خرجت سوميت من بين سيقان الدُّخن كانت كاكا ذاتها الخالق الناطق، تخرج من بين القناديل مخلفة وراءها الرِّهاب، الذي بدأ يتراجع بعيداً، بعيداً..

من بين شقوق الأرض برزت فجأة. وقفت قبالته.. إبتسما بوجه بعضهما.. تماسك، وسألها عن ود التويم... لحظتها كانت عصافير الوادي تغنّي غناء اللهفة والأشواق، فأخذ يرتعش، وفي رأسه يدوي ألف خاطر..

هل كان كل ذلك وهماً أم حقيقة؟.. هل عرف بالفعل يوماً مراهقة بدوية جميلة بلون الكاكاو تدعى كاكا.. وهل أحبها حقاً.. وهل غادرت مضارب الرُّحَلْ بليل، وأختفت كالفقاعة مخلفة وراءها طيفها الغامض، في قلب الرِّهاب؟!!.. طيفها الذي يطارده الرُّحَلْ في كل مكان؟!..

إذن لماذا لم يصارح سوميت بهذا الحب من قبل؟.. هذا الحب الذي وئد قبل أن ينمو ويكبر، عندما قررت جدتها كاكا الهرب!.. لماذا لم يصارحها قبل أن تمضي في اللانهاية تلحق بجداتها جنيات الفيافي والغفار؟!..

كان جقندي مهزوماً ومنسحقاً إلى أقصى حد، وعينا ست البنات وعاشميق المترعتان بالشك والأحزان، وكل مخاوف الوادي وآلامه الضَّارية والضاربة في تاريخه عريق الهواجس والظنون، تفيض بأمواج هادرَّة تقمع داخله أي رغبة لطلب المواساة، التي أيضا كانا بحاجة ماسة لها. ربما أكثر منه..

إذ كانا وقتها يتحسسان جُرحيهما، دون أن يريا هذه الطعنة التي أصابته في القلب تماماً.. هذا الجُرح الغائر المميت الذي يحمله ككفن يتغطى به ويندفن!..

في تلك السنوات البعيدة كان خارجاً من خيمَّة جدته المدببة. وكان أطفال الرُّحَلْ شبه العُراة بأجسامهم الناحلة، وملامحهم الغبشاء، يلعبون بين الخيام، لعبة السهم والرَّمِيَّة، يحاولون إصابة أهداف متحركة، ربما تكون رجلاً أو امرأة عابرين من الرُّحَلْ.. طفل.. بقرة.. بعير أو أي شئ..

في تلك اللحظة رأى كاكا وهي تتهادى في مشيتها:

عينان شقيتان موغلتان في الأسى تضجان بالفقد..

أي فقد كانت تعانيه؟

أنه الحنين.. فقد الوادي.. الحنين إلى الوادي الوادع، الذي رسمته حجب النور في خيالها، بكل ملامحه وقسماته وحياته.. بطيوره وودیانه ونهره وجبل كارناسي المهيب..

أشعلت فيها تلك الصور المختزنة في ذاكرة حجب النَّور، حنيناً لا يوصف، ورغبة سرِّية عميقة للحياة هناك، حيث طيور الغارنوق وأشجار القنا والقمبيل وغناء الوازا النَّدي..

وهكذا أصبح يتعمد رؤيتها كل يوم من بعيد لبعيد..

يتأمل بشرتها الكاكاوية.. جسمها الناحل.. شفتيها الغليظتين وملامحها الحادة التي تبدو غالباً، كالمنقطعة عن الدنيا:

لا مبالية. لا تحفل بالألم. لا تتأثر بهموم الرُّحَلْ.. تتألق في نور النِّداء الخفي لعينيها الواسعتين، وهما ترِّفان في الظلام، الذي يكلكل قوافل الرُّحَلْ منذ مئات السنوات..

تتثبتان كجوهرتين، فيتزاحم القمر والشمس والنجوم، جميعهم يخروا ساجدين، وترتخي قبة السماء لتلامس قمم القمبيل، وجبل كارناسي وماء النَّهر.. تصبح الأرض أقرب من حبل الوريد!..

وهناك خلف قمة كارناسي، خلف السرَّاب المتبدد، تزرع الألق والحنين الجارف.. فيتبعها جقندي خفيَّة في كل مكان: وهي تضجع على الرمل تعبث فيه بأناملها.. وهي في الخيمَّة مع أمها، حيث فتح شِقا صغيراً يسمح لعينيه بمراقبتها خلسة، آمناً دون رقيب.. دون مواجهة مباشرة.. دون..

ومع ذلك كانت ملامح وجهها تنطوي على شيء من الحزن الغامض، الذي لا حدود له!..

لم يقترب منها أبداً أو يحاول تسرِّيب عواطفه المكبوتة.. المرَّة الوحيدة التي ضبطته يسترق النظر إليها، تمعنت وجهه طويلاً دون أن ترمش.. كانت كاكا لا ترمش!..

زرعت داخله قلقاً رهيباً.. كل لوعة الترحال وأساه.. كل قلق الرُّحَلْ وأحزانهم.. لحظتها كانت ترمش في قلبه، الذي كان يخفق بشدة وينتفض..

ترى هل أحب حفيدتها سوميت حقاً؟

أم تراه أحب فكرة كونها حفيدتها.. فكرة الحب القديم؟!..

بقدر ما كانت عينا كاكا مترعتان بذلك الأسى الغامض، كانت عينا حفيدتها سوميت حانية، شقية كعالم المشردين الذى أدمنته، وهكذا في لحظة منهكة بسنوات الترحال والعذاب قرر البقاء.

رحل القوم. تركوه خلفهم يواجه قدراً غامضا. يواجه وحده مأساته ومأساة الوادي الوجودية الكبرى، في إنتظار نهايات وشيكة!..

ما أن توقف المطر حتى خرج ثلاثتهم من الكهف، توجهوا إلى المقابر. كانوا يشعرون بأنها نظرة الوداع الأخيرة..

تراءى جبل كارناسي لحظتها بعيداً، وقمته غارقة في الغسق الحزين الوسنان.. غيمَّة عابرة حطت قبالة قبر سوميت، بكت فلطمت أوراق القمبيل بكفها أرض الوادي، الذي بدى مهتزاً وغارقاً في المأساة..

قبلها بساعات كان الظلام قد خيَّم على الوادي المسكون بالقلق والتوتر، ثم غيَّم كل شئ.. كعين قطع الشك وهي تغالب دموعها!.. وجاء صوت الوازا من بعيد كئيباً، مهلهلاً كنشيج الوادي الغارق في الكآبة والعتمَّة والأحزان..

الآن فقط أصبحت رؤية وسماع كل شئ أكثر وضوحاً، من أي وقت مضى.. زحف جقندي داخل خيمته. تأمل جسد سوميت المتمدد على تراب الخيمَّة. رآها..

كانت نصف عارية والدماء تغطي كل شبر فيها، ومع ذلك كانت بإبتسامتها الملائكية، تبدو كنائمة وليست ميتة.. كانت تبدو كالغارقة في نوم عميق، تحلم أحلاماً يانعة لطالما طمحت لتحقيقها..

أشعل جقندي حبات القضيم السبعة الراقدة في قاع كدوسه الأبنوسي الطويل، وترك فمه مفتوحا يتسرَّب منه الدُّخان حاملا صلواته المجيدة، وسوميت تتراءى له من بين التموجات الدائرية، وغير المنتظمة للدُّخان كأنها تفتح عينيها بين آن وآخر، تنظر إليه في محبة، وربما تضحك ضحكتها المميزة، تلك التي كهمس ممزوج في أنغام أم كيكي المحبة الودود في حزنها النَّقي..

كانت تتراءى له تحاول شد ثوبها الممزق، لتغطي جسمها نصف العاري دون جدوى، فدائما ثمَّة نصف عارٍ، مكشوف!..

تخلل بأصابعه النحيلة شعرها الأجعد، وهمس وهو ينفث الدخان:

"رحلت إذن؟"

"رحلت؟"

ألقت ست البنات الزاحفة عند مدخل الخيمَّة بسؤالها الدهش الموجوع، وهي تكرر بشكل آلي:

"إغتصبها الجنكويز المجرمون. عذبوها. وفي القلب تماما غرسوا شوتالاتهم.. كانت جائعة وعطشى ومنهكة إلى حد فظيع.. لم يعطوها حتى جرعة ماء!"..

ثم التفتت إلى جقندي بصورة مباغتة:

"أولم يكن في مقدورك انقاذها؟"

فرد بألم مرير:

"وهل أستطعت إنقاذ الوادي لأنقذها ؟"

على الرغم من أنه لم يشعر يوما بأنه تقدم في السن، إلا أنه لحظتها شعر بنفسه كم هو طاعن، ومنهك ومنتهك إلى أقصى حد. الآن فقط يشعر بأن كل شئ وشيك النهاية!..

كان كئيباً ومتعباً.. مُحاصراً بالكوابيس ومشاعر الغضب والقلق والتوتر. وكان كل شيء للمرَّة الأولى في حياته يتجمع دفعة واحدة ليحاصره، ويجعل كل حواسه متحفزة.. مرهفة فيرى بعيداً خلف الأفق، ويسمع حتى طرقعة ورقة القمبيل على الأرض الرطبة، فيهمهم في دخيلته:

"دائما هناك مكان.. وغالباً هناك دمار لهذا المكان"..

في تلك الصبيحة بعد أن تركته سوميت ومضت، شعر بخوف مفاجئ. حاول اللحاق بها، لكنها كانت قد اختفت..

مضى يحاول العثور عليها. اجتاز دروب وشوارع البندر المكتظة بالأهالي الثائرين، الذين كانوا يصطدمون ببعضهم البعض في الزحام، دون اعتذار.. دون إبتسامة، مدفوعين بغضب هادر!

كان يتفرس في كل الملامح.. ولم تكن سوميت هناك.. كان الجنكويز قد اعتقلوها حتى قبل أن تصل، لتختلط بالجموع الثائرة...

لم يفهم طوال ما مضى من وقت، حقيقة ما تعنيه له سوميت بالضبط إلا الآن فقط، يكتشفها تسكن داخله كشئ من السرمدية والأبدية، كسِّر الاحساس بالذنب الذي لا يعرفه أحد..

كان ينظر إلى جثمانها الممدد الهادىء، كملاك حزين على أرض الخيمة المتلفعة بدخان القضيم، والمتلهفة لطقوس الإنتقال الأخيرة!

غابت ست البنات وعاشميق في صلاة طويلة أمام مقبرة سوميت المتمددة بهدوء تحت شجرة القمبيل العجوز.. التي نثر جقندي تحتها حبات القضيم وعشبات السناسنا والمحريب...

إنكفأت ست البنات على القبر بعينيها اللتان وسمتهما المأساة بحزن مقيم، وحاولت في إستماتة تجنب عينا جقندي الداكنتان الحزينتين، وهي تغالب نفسها للتملص من مشاهد تلك الليلة المظلمة، التي أبطل فيها الجنكويز مفعول كل شئ يمكن أن يهدد بقائهم!..

كانتا وحدهما هي وسوميت فقط.. حاولت أن تصمد لكن لم تستطع أن تتمالك نفسها.. فأعترفت بكل شئ!.. قبلها كانت تجهش بالبكاء على أحضان سوميت المجروحة..

بدى جفنها المتسع في إنكفاءته كأنه يحتوي القبر، متغلغلاً في طبقات الأرض كلها، وفي الفضاء الحزين الواسع الذي لا حدود له.. حيث تتناهى من كل مكان أصوات كرابيج الجنكويز، وهي تلهب ظهر سوميت، التي سال دمها سخياً يوشح أرض الكهف الصلدة...

إنكفأ جقندي على قبر سوميت، وأخذ ينتحب بشدة كطفل صغير فقد أمه.. لقد ماتت أمام عينيه دون أن يتمكن من فعل شئ!..

لحظتها كان طيف سوميت يخرج من القبر ينتصب أمامه وديعاً، مبتسماً ومحاطاً بهالة من النُّور الشفاف.

أخذت تمسح دموعه بحنو دون أن تنطق بكلمة، ثم أختفت فجأة، كما انبثقت من القبر فجأة، فالتفت بسرعة إلى ست البنات وعاشميق:

"هل رأيتماها؟"

تبادلا النظرات بينهما ولم ينطق أحدهما بحرف، فسأل بصوت حاول أن يجعله هادئاً، خالياً من التوتر:

"كيف كانت نهايتها؟"

أطرقت ست البنات برأسها وعيناها تسافران بعيداً، مع تلك السحابة الصغيرة، التي ظهرت بمحاذاة الشمس، فبدأت القبور كلها تزهر زهوراً ملوّنة، مغمورة في ضوء شفيف يغسل كل شيء حولهم..

ستمر على الوادي آلاف الغيمَّات الأخرى، التي تنبع من مصدر الزوبعة داخلهم، دون أن تغمر أرواحهم بالسلام.. دون أن تطوف إبتسامة سوميت الغامضة، التي تفتش في أعماق الوادي عن البلدة المدفونة بالحكايا والأحجيات التي داخلهم...

إنتفض عاشميق إنتفاضة مبهمة، كأنه يتحسس النَّار، التي تتقد داخل جقندي، وتسآل في نفسه:

"ترى لو لم يظهر جقندي في أفق حياتهم، هل كانت سوميت ستعيش؟.. وترى لو كانت سوميت عائشة هل سيحدث ذلك فرقا في الوادي أو في حياتهم؟..

وهل كان من الممكن أن تجنب حياتها الوادي نهايته الوشيكة، التي لطالما تحدث عنها جقندي محذراً.. كما تحدث عنها الجنزير التقيل من قبل؟

وما هي طبيعة الحلقة الجهنمية اللعينة هذه؟.. "

كانوا جميعهم مشوشين لهول الصدمة.. وكان عاشميق وست البنات.. كلاهما يدرك أن فقدهما لسوميت، يُتم ليس بعده يُتم.. يُتم لهو أشد وأقسى من ذلك الضياع الذي كانا يحسانه، عند فقدهما لأبويهما في غارات السلطان والجنكويز على دار الريح...

حدق عاشميق في عيني ست البنات كأنه يعزِّي نفسه:

"رحلت لكنها تركتك لي"

فأبتسمت ست البنات في حزن:

"وتركتك لي أيضا"

للمرَّة الأولى يشعران بأنهما وحيدان في هذا الكون الواسع، ليس لهما سوى بعضهما البعض..

قبل أن يغادرا المقبرَّة إنتحت به ست البنات بعيداً عن جقندي، وأخبرته رغبتها في مغادرة الوادي..

"وأنا؟"

"يجب أن تغادر معي"

"إلى أين؟"

"بلاد الروح العظيمة واسعة"

"لكننا هكذا نبيع دماء سوميت.. دماء إخوتنا المشردين ودماء الأهالي الذين قضوا!!"

"أخشى أن نلحق بهم إن لم نغادر. لن يتغير شيء في هذا الوادي الملعون"

وهكذا عند السحر غادرا الوادي، وهما يمسكان بيدي بعضهما.. مشيا عبر طريق متعرِّج، يفضي إلى عوالم غامضة مجهولة، سيقبلان عليها بكل ما يحملانه من مخاوف وهواجس وظنون...

وقبيل مغادرتهما حدود الوادي، عرجا نحو النَّهر يُلقيان عليه نظرَة الوداع الأخيرة.
بدى لهما النَّهر رقراقاً ومستأنساً، لا يزال على شاطئه ما رسمه الأهالي بأقدامهم الحافية من حكايا غير مكتملة، لبشر يحاولون أن يجدوا موطئ قدم في حياة الوادي الموحش.. بشر يحاولون مقاومة الموت على طريقتهم.. بالنسيان ودفن القصص والحكايا في الرمال، التي تناثرت عليها قطع المحار السوداء والقراقير الصغيرة، التي يرمي بها الموج أثناء تدفق المد، في طريقه إلى المجاري المتفرعة، التي تربط الجروف ببعضها البعض..
تفتت التراب الهش تحت قدميهما. كانا يمشيان على حافة القيف المنسرح إلى جرف النهر، حيث تنعكس الشمس على صفحة الماء، كشعلة المعرفة وهي تذوِّي في أتونها الأزلي..
على صفحة الماء الذي بدى كمرآة محفوفة الحواف، كانا يريان وجهيهما مظللين غامضين.. فيتدفق البريق الخابئ الحبيس في عينيهما في توتر قلق..
إستنشقا الهواء المكحل برماد فجرٍ زاوٍ.. وتجردا من ثيابهما.. تقدما يضعان قدميهما على الماء، وهما يمسكان بيدي بعضهما، ثم ألقيا بنفسيهما في المياه ببطء، وعاشميق يتملى في عينيها، اللتان كانتا لا تزالان تتقدان بنيران ما جرى لسوميت، على مرأى ومسمع منها..
كانتا لا تزالان مجروحتان نازفتان بغضب مكتوم، وأسى لا حدود له. كان حزنه على سوميت أيضا كبيراً، يتراءى له طيفها الآن فتسيطر عليه مشاعر متضاربة، أشد من أن توصف بمجرد كلمة واحدة:
"الحزن"...
مشاعر تفجر كل المخزون الأزلي لأسى الوادي ولوعته وعذابه.. كان كل ما يمور بداخله من مشاعر متضاربة متفجرة، ينعكس على عيني ست البنات، فتبدو قلقة متعبة وجسمها الممتليء يبدو ضئيلاً وحزينا في الماء.. ووجهها أغبشا، رغم القطرات التي بللته.. علاه شحوب لا نهائي!..
كانت كمأساة متدفقة يسعى الماء للإمتزاج بها وغسلها، فتتدفق مع الموج على رمل الشاطئ بقوة، وتمضي إلى مجاري الجروف لتغمرها...
فيما مضى -قبل الإعتقال- نعم سيبدأ عاشميق منذ الآن يؤرخ بالإعتقال لمرحلتين في حياته وست البنات..
فيما مضى كانا دائماً يقضيان أوقاتاً ممتعة. رائعة ورائقة، خلسة بعيداً عن عيون سوميت والمشردين والشايب جقندي..
كانا يتدفقان فيها على بعضهما دون هوادة.. يمنحان بعضهما ما حرموه من حنان ومحبة، وينسيان في غمرَة أحاسيسهما الفياضة، كل ماضي الحرمان. الذي ظلا يقتاتان منذ الطفولة على ذكرياته..
لم يعودا يعيشان في الماضي. كانت أحزانهما قد أخذت تتراجع شيئا فشيئا، بفعل طاقة الحب الفياضة..

الآن كل ما حاولا نسيانه من عذاب، تنبشه مشاعر الحزن من أعماق الذاكرة، كلعنة تضع مشاعرهما وأفكارهما تجاه كل شئ، على مفترق دريبات دار الريح...

كانت ست البنات من ركنها المنزوي في كهف جبل كارناسي.. الركن الذي لطالما عشقت من زاويته مراقبة عاشميق، أثناء إنهماكه بحرص شديد على إزالة النتوءات البارزة على جدران الكهف.

كان يريد لصفحة الجدار أن تكون ملساء. خالية من النتوءات أو الثقوب أو الشقوق، التي كان عندما يكتشفها يملؤها بالطين الصَّلصَّال..

كان يفعل ذلك بمحبة شديدة، كأنه ينحت جسد محبوبته ست البنات، التي كان يشعر بها في ركنّها المنزوِي، تتابع بعينيها كل ضرباته على الإزميل الصغير..

وكانت هي تتخيل ضربات إزميله كالطير الكاسر، الذي ينقض على الطيور المرتاعة أسفل جنقل السلطان.. لطالما حلمت ست البنات بمغادرة وحشة التشرد وكآبته، إلى بيت يجمعهما وحدهما:

هي وعاشميق.

يعيشان فيه حياتهما الطبيعية، دون إحساس بالحرمان أو الغبن أو الخوف أو الجوع...

تلك الظهيرة الغائظة، كانت هي المرَّة الأولى التي يختلي فيها بست البنات.. كان قد ذهب إلى الكهف مبكراً لينهي ما بدأه من تدوينات أُحفورية على الجدار.

في تلك اللحظة جاءت ست البنات، تحمل صُرَّة من القضيم، عندما وقعت عيناها على عينيه.. إرتبكت وتعثرت قدماها بقدمه في الفضاء الواسع للكهف!..

كان الكهف فجأة قد بدى ضيقاً كحضن.. لكن حميماً ودافئاً وحنون.. سحبت قدمها بسرعة ووجهها يعلوه شبح إبتسامة خجول، ثم استدارت لتفلت خارجة..

في اليوم التالي جاءا في التوقيت نفسه، دون اتفاق مسبق. كانا وحيدين. خائفين. حالمين، وثعبان أبو الدَّفان الذي بداخلهما يزحف على قلبيهما، كالزاحف على الرمضاء، لكن ببطء شديد.. يعاني لهفة الزحف الأزلية، على جسد مزغب عار..

وهكذا بدى لهما الوادي لأول مرَّة:

جميلاً ومكاناً يصلح للحياة..

فقد عثر كلاهما على ما يريد في هذا المنفى، الذي صار وطناً حميماً..

لم يشعرا بالأرض تحتهما، ولا بالمياه التي كانت دافئة كالدمع.. دفء غريب!.. كما لو أنهما ليسا هما.. خفيفين كنباتات المعونة الطافية في دعة وحبور..

إستلقيا على سطح الماء كالمعونة.. كأنهما يستلقيان على أرض الكهف الصلبة. الجافة، وغابا في إغفاءة هادئة، غير آبهين للمويجات الصّغيرة، التي تداعب جسديهما في شقاوة ولطف..

إختبأا خلف عشبة المعونة.. كانت الوحدة التي ظلت تحاصرهما منذ مقتل سوميت، قد بدأت تغرق، والمياه تغسل أحزانهما بحنو، دون أن يلحظا عينا جقندي، التي كانت تراقبهما من بعيد...

كانت أعصاب جقندي المشدودة في موضعه على قيف الشاطئ، لحظتها قد بدأت تخفف من إنقباضاتها.. إنتظمت أنفاسه وبدأت أطرافه تسترخى، وكل جسمه يرتخي، في أفق الشاطيء الذي بدت تلوح على مداه، أشباح الحوريات، فتبدو أشجار القمبيل على الضفة الأخرى، كالرُّحَلْ وهم داخل خيامهم المدببة، يقيمون طقوسهم الروحانية الغامضة..

لحظتها كان حنينه إلى قومه يشتد.. بالأحرى حنينه إلى الرحيل والتنقل، الذي أصبح هدفا بحد ذاته، دون رسالة يحملونها هنا أو هناك!. فقد تعب الرحل كثيراً لترتيب هذا العالم العجيب، منذ الجنزير التقيل وصولاً إلى جقندي...

لوَح لهما جقندي بيديه قبل أن يتواريا خلف عشبة معونة النيل، عاريان إلا من حبهما لبعضهما..

إنتظرهما جقندي طويلاً بقلق، ورعشة مباغتة تهز كيانه هزاً.. هو الذي منذ قتل الجنكويز سوميت فارق النوم عينيه كان مجهداً وحزيناً، وكانت شمس الصباح قد بدأت تلسع فيه الوجه والقفا..

وأصوات الأسلاف المتداخلة داخله، تتراجع شيئاً فشيئاً، فتتركه يعاني وحدة وغربة هذا الوادي شديد البؤس واللوعة..

توغلت عشبة معونة النيل بعيداً.. طافية وحدها على سطح الماء، ولم يكن عاشميق وست البنات هناك.. حيث أختبأا خلفها!؟!...

٣

توجه الشايب جقندي نحو الخيمة الصغيرة، التي لا يتجاوز قطرها ثلاث أمتار، وإرتفاعها متر ونصف.. زحف على الأرض عند مدخلها الضيق، عارياً إلا من مئزره القصير. اتخذ موقع جلوسه على تراب الخيمة، بينما كان آخرون من "الرُّحلْ" قد أنهوا لحظتها صنع الدائرة الترابية الكبيرة، أمام مدخل الخيمة، ووضعوا عليها رأس الجاموس والكدوس والسهم الطويل، الذي ربطت أطرافه بصرتين من القُضِيمْ..

وبعيداً قليلاً من الخيمَة الصغيرَة المدببة، وضع أحد الرُّحَلْ على النار المشتعلة أحجاراً صغيرة ملساء، ومن ثم بدأ أفراد الرُّحَلْ يزحفون إلى داخل الخيمة، عُراة إلا من مئازرهم القصيرَة، ليتخذوا مواقعهم في شكل دائري، بحيث لم يبق فراغ سوى دائرة صغيرة في الوسط، الذي وضعوا فيه أربعة إحجاراً صغيرة بإتجاهالقِبَلْ الأربعة ثم أخذوا يتمتمون بصلوات طويلة..

بعدها أخذوا يشمُّون ثمار القُضِيْمْ قبل أن يعبئوا بها الكدوس الذي أخذوا يتبادلون تدخينه ويرسلون مع تموجات دخانه صلواتهم إلى الروح العظيمة، وهم يهزّون نشاشيبهم وسهامهم بخشوع!

ومن ثم أخذ الأربعة الذين بإتجاهات القِبَلْ الأربعة يتحدثون في وقت واحد عن العدل والخير والإحساس بآلام الآخرين، وعندما أنهوا أحاديثهم، رفع الشايب جقندي عقيرته بغناء حزين، تجاوبت معه طبول الرُّحَلْ التي بدأت ضرباتها القوِيّة حالما سمعت صوت غناء جقندي الحزين تتبعها الوازا لتزيد من أحزان السهل الفسيح المنسرح خارج وادي الذهب، و الذي حط عليه الرُّحَلْ رحالهم..

ومن ثم تبع الجميع الشايب جقندي زاحفين إلى خارج الخيمة، ليتوسطوا حلقة الغناء والرقص، التي تكونت أثناء أداءهم طقوسهم المقدسة.

شعب الرُّحَلْ الذي أقام دائما في مساكن مدببة. مؤقتة. بعيداً عن عيون الناس، في الأماكن غير المطروقة. ظلت حياته على الدوام، تكتنفها الكثير من الأسرار والقصص المبهرة التي تناقلها المغنون والرواة عبر الأجيال، من أقاصي الدنيا ودوانيها.

وحيث تنشغل الحكايات في جنوحها بحثاً عن أصل وفصل الرُّحَلْ، ترتد راجعة مرة أخرى، إلى نقطة بدايتها.. في الغموض الذي يلفها، عندما قرر الرُّحَلْ نهائيا إثر الدمار الثالث، أن يتحولوا من شعب مقيم إلى شعب مرتحل.. كل بلاد الدنيا بلاده..

كانت نساء الرُّحَلْ الجميلات بالأوشام التي رسمت على وجناتهن شفاههن السفلى "المدقوقة" يكاد لا يحس بوجودهن أحد!

فقد كن يتشابهن حتى لكأنهن إمرأة واحدة مستنسخة.. بعباءاتهن التي تغطي أجسامهن الفارعة، بحيث لا يبين منهن سوى عيونهن الواسعة، كعيون المها. وربما ذاك هو ما دفع أمهات قطع الشك وسوميت و الدود أبو حجل وأبو شوتال وآخريات كثر، أن يهربن من مضارب الرُّحَلْ عبر مختلف الأجيال!

جانحات لحياة البندر والإستقرار، يحلمن بحب متجدد في مكان ثابت، مألوف وأليف. وعلى عكسهن تماماً كان الرجال الرُّحَلْ بوجوههم الموشومة وثيابهم المزركشة، عديدة الألوان. التي زينت بقطع المرايا والخرز و"الترتر" وقصاصات الجلد الصقيل الصغيرة، الملأى بالأوشام والنقوش، التي تشكل الخرتيت والعنقاء والتنين. فتزيد أشكالهم غموضاً ورهبة.

شعب الرُّحَلْ على الرغم من كونه ليس شعباً من المحاربين، إلا أنهم كانوا يجيدون إستخدام النشاب، الذي يصيدون به الحيوانات في مهارة فائقة حتى لو كانت متحركة، ودون أن ينظروا إليها، وربما أن ذلك يعود إلى براعتهم المدهشة في تقدير المسافات، التي تضاهي براعتهم في قراءة الطالع وسبر أغوار النفس.

منذ الدمار الثالث والرُّحَلْ لا يمكثون في مكان واحد، فعندما قرر الروح العظيمة قبل مئات السنوات إغراق وطن الرُّحَلْ، بسبب طغيانهم وإستبدادهم وتجبرهم، وإستخدامهم لشعلة المعرفة، التي منحهم إياها. في أعمال الشر والقتل والخراب والدمار. أختفى من الوجود عالمهم الذي لطالما ألفوه، وأبدعوا فيه كل ما هو ضروري لحياتهم!

بل كانوا وقتها قد تمكنوا من الوصول إلى النجوم القريبة، بعد أن عرفوا المغناطيس والمعادن، وجنح بهم الخيال فأخترعوا وسائل التعذيب وأدوات الدمار، كانوا قد بدأو يقتربون كثيراً من أسرار الروح العظيمة، وهكذا لم يتركوا له أي خيار سوى إهلاكهم، وإغراقهم بمياه البحر الملون، التي فاضت إلى أن إلتحمت بمياه النهر، وشكلّت مع الأمطار الغزيرة، فيضاناً غطت مياهه كل شئ.

قبلها كان بعض العقلاء والصالحين، قد هربوا على متن الدروع الطائرة، وأجنحة العنقاء، والقوارب..

وعندما أنحسر الماء ووطأت أقدامهم اليابسة، أخذوا يتنقلون من مكان لآخر، دون أن يقيموا فيه وكانوا في حلهم وترحالهم، يقيمون مع نساء البلدان التي يمرون بها علاقات غامضة، لكنها تتمخض على أية حال، عن أطفال شديدي الذكاء والجمال، فجدات سوميت وقطع الشك والدود أبوحجل وأبو شوتال وغيرهن، كن ثمرَّة مثل تلك العلاقات الغامضة! التي زرعت فيهن حنيناً غامضاً لمواطنهن التي هجرنها منذ تركن ديارهن وتبعن الرُّحَلْ فأرضعن هذا الحنين أطفالهن، الذين تمكنوا من الهروب بعد ذلك، ليبدأوا حياة جديدة في وادي الذهب، الذي كان يشعر الرُّحَلْ بإنتماء غامض إليه!.. هذا الشعور الذي وقف خلف قرار الشايب جقندي بالبقاء.

منذ خطى الرُّحَلْ على اليابسة، كانت قد استقرت في نفوسهم، قناعة أن يستمروا في التنقل عبر واحات الصحراء والوديان، لينقلوا أخبار الكارثة التي حلّت بشعبهم، إلى الأجيال المختلفة في كل مكان!

وهكذا مضوا يقطعون الفيافي والغفار، دون أن يقيموا هنا أو هناك، إلا قليلاً، ريثما يواصلون الرحيل مرة أخرى.

الآن حيث يقيمون في السهول، التي عند أطراف حاضرة الوادي، يشعرون.. جميعهم يشعرون بنذر الكارثة الوشيكة التي ستعصف به، والتي يعتقدون أنها مقدمةً للدمار الرابع. بحيث لا يتبقى للبشر.. كل البشر سوى ثلاث مراحل أخرى، لينتهى العالم بعدها تماماً، وتطوَى صفحته إلى الأبد، فلا ناجون يعمرون الأرض بعدها!..

على تراب الخيمة وضع جقندي سبعة دُّمي صغيرة، تمثل الجنزير التقيل و الأسلاف الذين قضوا في دمار العوالم الثلاث، والأحفاد الذين لم يأتوا بعد في العوالم الثلاثة المقبلة.. كانوا جميعهم أحياءً في هذه الدُّمي الصغيرَّة الملوّنة..

غاب جقندي في صلاة عميقة.. إنشقت الدُّمي عن طيوف ساكنيها، الذين تحلقوا في دائرة حول الخيمة، توسطتهم قطع الشك ترقص عارِية، وعيناها اللتان كبحيرتين واسعتين، إستحالتا لبحرين من الغضب والنارا!..

رقصت قطع الشك على أنغام الوازا والطبول، التي تناهت من الخارج كأنها تأتي من البعيد.. من أعماق الأسرار الخفية والغامضة للرُّحَلْ.. رقصت كحوريات وادي الغزلان، والطيوف السبعة تغوص عميقاً.. عميقاً في فضاء الخيمة الدائري..

تحلق في الفضاء المتمدد.. إذ أخذت الخيمّة لحظتها تتسع وتطول. ثم تبددت قطع الشك في الفراغ، وعادت الخيمّة إلى حجمها الصغير وسكن كل شئ فلم يعد جقندي يسمع سوى زفيف ريح الخماسين في الخارج، ممزوجة في أنفاس قطع الشك، التي خلفتها وراءها...

تنحنحت الطيوف السبعة، تنتزع جقندي من اسغراقته العميقة. أخبرهم جقندي برغبته في المكوث بوادي الذهب..

إبتسموا وهم يديرون رؤوسهم نحو بعضهم البعض، وهزوا رؤوسهم وتلاشوا في فراغ الخيمة الصّغيرة، يتبعون طيف قطع الشك الذي تبدد!..

وعلى"هدب الدَّغَشْ" عندما شد الرُّحَلْ رحالهم، ودعهم جقندي ومضى متوجها إلى بندر الوادي عبر "حواشات" الذُّرة والدُّخن، حيث رأى "البِنَيَّة" الجميلة سوميت فخفق قلبه بشدة وأنتفض.

بعد أن هيأ جقندي في كهف جبل كارناسي سكناً له، مضى يلتقي السلطان.

فشلت مفاوضات جقندي مع السلطان، الذي رفض كل ما أسداه جقندي من نصح. ولم تمض سوى أيام قليلة، حتى بدأت علاقته تتوطد بسوميت، التي جمعت المشردين ليبنوا له داراً في أطراف "دبة أم قنيطير" التي تتوسط "فجيجة ودالتويم".

فبعد أن فشلت مفاوضات جقندي مع السلطان، وفشل السلطان في إغراء جقندي بالإقامة في أي دار من الدور السلطانية، تمكن ود التويم من اقناع جقندي بإقامة دار له في "الفجيجة" التي يملكها، بل وأهداه هذه الفجيجة، التي تتجاوز مساحتها الألف عود.

وفي الحقيقة أن ود التويم لم يتمكن من إقناع جقندي، فهذا ما كان جقندي يريده بالضبط؟!..

أنهى المشردون تشييد دار جقندي، الذي حرص تساعده سوميت وعاشميق، أن ينصب بنفسه في الطرف الشرقي منها.. قبالة وادي الغزلان، خيمّة مدببة كخيام قومه الرُّحَلْ..

٤

موجة شقيَّة تنتشر على قيف الشاطيء، ترش وجهه بالرزاز، تهدد وسنه الأسيان. ينكفيء بوجهه بعيداً حيث تلوح سوميت غارقة في خدر ست البنات وعاشميق. وقطع الشك قبالتهما.. تلوِّح بيديها، وهي تتماهى في زبد الموج المتبدد خلف عشبة معونة النيل، وترحل...

اختفت قطع الشك.. اختفت وما عادت تظهر إلا في الليالي شديدة الحلكة، تعترض السابلة وتخيفهم، وتستدرج الجنكويز، برقصها الساحر على أنغام مزامير خفية، لا يدري أحد مصدرها.

يشعرون بالخدر لدى سماعها، ويصبحون كالمنومين مغناطيسياً، فلا يفيقون إلا بعد أن يشعروا بآلام حادة في أنوفهم المدماة، وعظامهم المرضوضة!..

ولدت قطع الشك لأبوين مجهولين! لا أحد يعرف عن نسبهما وحسبهما أي شئ. فقد وجدهم الناس هكذا.. فجأة.. يسكنون بينهم في منتهى الزقاق المفضي إلى الساحة، التي تتوسط بندر وادي الذهب.

كانا مألوفان بشكل غامض، ويبدوان كجزء من الذاكرة المنهوبة للوادي!...

حين ولدت قطع الشك، في البدء لم يشعر بوجودها أحد.. وعندما شعروا بوجودها، كانت سطوة عيناها الواسعتين، قد ملأت قِبَل الأرض الأربعة.

فقد كانت دائما مغطاة بعباءة لا تكشف منها شيئاً، سوى عينيها الدعجاوين. وكان الآخرون يشعرون بوجودها بمجرد سماعهم وقع خطواتها الهامسة، ونكهة "المحريب" التي تسبق الرَّنات المميزَّة لحجولها، التي تعلن عن مرور طاغ لسحر لا يقاوم!..

كانت قطع الشك بقوامها اللدن، تتثنى في مشيتها الهادئة كالهفيف، وأنفاسها المبثوثة في نكهة المحريب، تكاد تحرق كل من تمر بقربه، مخلفة وراءها "هبود" الدَّنف والإثارة القاتلين!..

كانت أشبه بلعنة خالصة، لا تحتك بها إلا وتملؤك رهبة تدك أعتى القلوع المشيدَّة، من أحجار جبل كارناسي المقدس..

في ذلك المساء البعيد.. قبل عشرات السنوات، سد عليها الجنكويزي الدود أبوحجل الزقاق الضيق، مستعينا بجنكويز الصحراء المتطرفين..

حاول أخذها عنوَّة. تمنعت. قاومته.. تمكنوا منها. قيدوها. وأخذ الدود يعرِّيها وهي تبكي، والجنكويز قد تسمروا أمام سطوة جسمها العاري..

كانوا كالذين صعقهم تيار البرق العبادي، وصواعقه الرهيبة في "سنة نجع الناس لديار سافل"..

تملصت قطع الشك من زراعي الدود، وأخذت تركض عارية وعيناها اللتان كبحيرتين واسعتين، إستحالتا لبحيرتين من الغضب والنار..

لحظتها كان الدود قد لحق بها. إرتميا على الأرض يتصارعان. تحاول الإفلات، ويحاول السيطرَة. فيما كانت روحها تحلق بعيداً نحو السماوات البعيدة، لتعود مرة أخرى بعد عشرات السنوات، لتولد في البنية الجميلة سوميت، التي ستغادر في لحظة كارثية، وتترك الشايب جقندي يتيما، بائسا، متمدداً على الأرض القردود، أو قيف شاطئ الوادي الحزين..

تركته لوحدته المجيدة بعد أن أخبرها عن مداولاته مع ود التويم حول كل شيء في وادي الذهب، الذي كان الجنكويز يوشكون على فصل صعيده..

تركت سوميت جقندي في عزلته البديعة، يتمدد على الأرض القردود المخددة بالشقوق، دون أن تدري لحظتها أنها تمضي إلى قدرها المحتوم!

فوقتها كان الجنكويز يقودهم أبوشوتال قد إحتلوا دارها. قيدوا والدتها أم كوراك إلى "شِعَب التُكُلْ" وربطوا والدها في "الراكوبة" الملحقة..

بينما الشايب جقندي لا يزال متمدداً على الأرض الطينية الجافة.. أغمض جقندي عينيه يستعيد أنفاسه اللاهثة. لم يكن قد نام لعدة أيام، وعلى الرغم من التعب الذي سكن مفاصله، كان عقله يتقد كأتون أزلي، وخواطره تلتهب. تنفث شررها أفكاراً وامضة، حول عالم وادي الذهب المأساوي الرهيب، ولا تلبث أن تنطفيء "كالهبود"!..

فمنذ عقود طويلة لم تعد سماء وادي الذهب، ذاتها تلك السماء الصافية، التي تلمع فيها النجوم البراقة.. هناك في الأفق الرحيب، حيث تتقاطع حزمات الضوء الهادئ تشعل مواجد المحبين، وتعين سُرَّاة الليل على رؤية الصّوى وعلامات الطريق، في ترحالهم الأبدي لإشعال نار المعرفة المقدسة، في كل المدن النائية البعيدة، التي يمرون بها.

إذن كان الشايب جقندي يحاول بأفكاره، إختراق عوالم من الماضي السحيق، الذي تراكمت عليه أغبرة الزمن، لقرون من فوضى الرمضاء و"القبلي" و"عجاج الهبباي" ورياح الخماسين العاتية.

فمنذ قرر البقاء قليلاً بوادي الذهب.. في حاضرة أجداده العتيقة، أخذت مخاوفه تمضي إلى نهاياتها الدائرية، مسحوبة بالنداءات العميقة، غائرة الجرح.

هذه النداءات التي تباغته كموجة هادرة، تحاول أن تسحبه إلى لجتها. وإزاء إصراره العنيد لا تلبث أن تتبدد، كزبد على رمل الساحل الأبدي للوادي المأساوي الرهيب.. الموحش، الذي تزيده تأملاته وحشة ورهبة وهواجس وظنون!..

نهض الشايب جقندي وجلس على ركبتيه. مدَّ كلتا يديه، أسفل جدار الكوخ الحجرِّي. سحب حجراً "مخلخلاً" بان خلفه صندوق أبنوسي قديم، تزينت جنباته بنقوش ملوَّنة..

رسوم للعنقاء والخرتيت والتنين. وهو يسحب الصندوق الأبنوسي، الذي ورثه عن أسلافه، الذين توارثوه بدورهم لعشرات السنوات، إلى أن وصل إليه، خرج ثعبان أبو الدفان من قاع الفتحة، التي كان يخبيء فيها الصندوق، وزحف تجاهه. فبصق فيه جقندي فيبس أبو الدفان في الحال، وجاء صوت الجنزير التقيل متناهياً من بعيد في صرختين متقطعتين:

جقند.. يبي.. جقند.. يبي...

مع صيحة الجنزير الأولى كان جقندي قد عبر دار صباح، وفي الصيحة الثانية كان يقف بين يدي الجنزير في ملأٍ من الأسلاف!

تبسم الجنزير في وجهه بحنو.. مسح على رأسه، ثم تبدد في الفراغ والسماء خلفه "تهرج" وتقول:

كع كرع كع ككع...

فتح جقندي الصندوق الأبنوسي الصغير بحرص. أخرج الأيقونات الملونة، ذات النقوش والرسوم البديعة. إنتقى إحداها..

كانت نقشاً لخريطة توضح موضع المعبد السري العتيق، في مجاهيل جبل كارناسي الذي شيده الشايب الجنزير التقيل والمشردون من دموعهم وأحزانهم على قطع الشك الجميلة.

كانت رسوم الخريطة ونقوشها الدقيقة، التي على الأيقونة. تنطوي على شيء غريب يصعب تحديده!..

شيء غامض يلّح عليه "كنقحي" الجُرح.. أحس ببرد مفاجئ، وشعر بقشعريرة تجتاح كيانه كله. أعاد الأيقونة إلى الصندوق، وأعادالصندوق إلى مكانه الخفي، أسفل الجدار، وحمل معه جثة ثعبان "أبو الدفان" الهامدة، وخرج لا يلوي على شيء..

ابتعد. توغل بعيداً في أطراف حاضرة وادي الذهب. وصل إلى جرف صخري، فجلس القرفصاء على أرضه "القردود" ومضى في تأمل عميق، لم تنتزعه منه سوى موجة البرد التي دهمته مرة أخرى على نحو مباغت.

كوّم حجارة صغيرة أمامه، وضع بينها بعض"عيدان الأندراب" و"القش" وأعشاب"النّال" وأوقدها بقدح حجرين من أحجار جبل كارناسي المقدس، المتناثرة في كل مكان لتدفئه من رعشات المخاوف وقشعريرات الهواجس والظنون، التي إنتابته وهيجت فيه الأشجان القديمة.

وشيئاً فشيئاً مع الدفء الذي سربته النار، أخذ نوع من الخدر الغامض يتسلل عظامه.. يهدءه قليلاً ويغيبه في "غيبوبة" مضطرِبة.

في غيبوبته كان يسمع الوديان والنهر و"الحفاير" و"الترع" و"الرهود" يصرخون..

الشجر وعشبة "معونة النيل".. السماء.. وكل شيء حتى صخور جبل كارناسي.. كانوا يصرخون.. هذه الصرخات التي ستظل داوية في الوادي لمئات السنوات القادمة!..

طوال مراحل ازدهاره وانهياره المتكرر، كان وادي الذهب يعج بالجنكويز الذين يستعين بهم السلطان ومجلسه لإلجام العوام وغير العوام عن الإعتراض أو الكلام!..

فالمطاليق أتباع الدود أبوحجل الذين تسببوا في الخراب والدمار الأول، أحفادهم هم من تسبب في الدمار الثاني، وأحفاد هؤلاء تسببوا في الخراب والدمار الثالث.. و...

وهكذا.. المطاليق الذين يقودهم أبوشوتال و يعاصرهم الآن الشايب "جقندي" سيتسببون في دمار الوادي مرة أخرى، وربما نهائيا وإلى الأبد هذه المرَّة. فالأمر نفسه الذي كان يحدث في المرات الثلاث الماضية، يحدث الآن:

إحتكار السلطان وجنكويزه للسلطة المطلقة، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول أن"بت السلطان عزباء- مع أنه عاقر- أو تلت التلاتة كم؟!" وإلا تم قتله في الحال وقطعه الجنكويز إلى أوصال...

على حين غرَّة بدأ المطر يهطل بغزارة، في السهول الطينية الواسعة. إنطفأت النار الصغيرة، التي أوقدها جقندي، الذي كان يشعر لحظتها بدفء أكبر، فوقف "على حيلّه" يتأمل العالم.. عالم وادي الذهب.. لكن بشعور ومذاق مختلف.. ليس كما أعتاد في الماضي:

تأمل كل شيء في إنتشاء ولذّة كبيرين!.. تأمل السماء وهي تغسل وجهه، وشرب من ماء المطر. إلتقط سبع قطع من الحجارة الصغيرة، ذات الإحتراق المنطفئ.. دسها في "مخلاته القوقو" ومضى بإتجاه الساحة الكبيرة، التي تتوسط حاضرة وادي الذهب.

نادى في الناس.. كل الناس، الذين جاءوا مهرولين.. التفوا حوله.. خطب فيهم.. كانت كل الوقائع والأحداث، التي مرّت على وادي الذهب، منذ أنشأه الروح العظيمة، تتدفق من فمه، كالمطر الذي يغسله الآن، ويُغرِّق أهالي الوادي في الأسئلة، التي لا أول ولا آخر لها..

كان واضحا أن زمنا آخر سيبدأ بعد توقف المطر...

الآن وكل شيء ينصرم، تتزاحم الصور والأخيلة والوقائع والأحداث على رأسه المنهك، الذي هيمنت على فضاء ذاكرته "سوميت" الجميلة، التي ترقد هناك في قبرها الصخري، المحلّى بالنقوش وأيقونات الحياة الأخرى، التي حفر عليها الأطفال المشردون، رسومات تُمثِّل:

التنين، العنقاء والخرتيت.. فوق إسمها الذي منحوه لوناً مُبهراً...

تراءت له سوميت مقيدة في العتمَّة. تتململ. تحاول الإفلات، وقد علقت من معصميها، إلى سقف الكهف الضيق. فلم يعد يتبق من حضورها الطاغ الآن، سوى هذه المقبرة المقدسة، التي ستحفظ أرمائها لآلاف السنوات القادمة...

تراءت له سوميت في ذلك اليوم البعيد، وهي تمضي مع عاشميق وست البنات لجمع المشردين، وتوزيع الشعارات التي تنقش على الجدران عليهم..

كان ثلاثتهم يتراقصون ويتمايلون كالسكارى، عندما انبرى عاشميق:

"أنت من ينقل لجقندي أخبار كل شيء! فيتحدث كأنه كاشف لم يخبره أحد!"..

لحظتها غضبت سوميت وغضبت ست البنات لغضبها.. وعندما أنهوا مهمتهم ومضوا للقاء جقندي، الذي ما أن رآهم عند مدخل داره حتى هتف في سوميت:

”ترقصي وتغني وست البنات وعاشميق يبرجو فوقك والجنكويز يتجسسوا على مفاتنك وعاشميق يقولك: كأنه كاشف.. جقندي ما بيخبر شيء؟"..

فأسقط في أيديهم جميعا وأنقطع عنهم كل شك..

أنهى الشايب جقندي خطبته الطويلة ومضى. وعند الفجر تماما غادر وعشيرته، التي كانت قوافلها قد وصلت للتو من مالحة عبر طريق الملح قاصدة دار صباح البعيدة...

غادروا بندر الوادي، يتبعهم المشردون وبعض الأهالي الذين سيصبحون منذ الآن"رُّحَلاً".. غادروا إلى حضن كارناسي، حيث المعبد العتيق.

وقتها كان وادي الذهب خلفهم يحترق، وندى الفجر فيه يتحول إلى كتلة من الحمم البلورية الملتهبة.. كان الحريق يأتي على الناس، والأشياء والشجر والحجر والمطر!.. كان يأتي على كل شيء!...

٥

في تلك الأمسية حالكة السواد، التي غاب فيها القمر، خلف سحب السماء البعيدة، حيث شفق المغيب يبدو كالضوء المنعدم في إنعكاسه على صفحة مياه الرهود والوديان، بحيث يستحيل كل شيء على سطح الماء، إلى محض ظلال شبحية متمايلة، كأنها تعاكس بعضها بعضاً في مكان مهجور لا أنيس ولا جليس فيه. فقط أطلال لا يسكنها أحد..

في تلك الأمسية التي غاب عنها القمر نهائيا، وإلى غير رجعة. وحجب الظلام كل شئ، كمن الدود أبو حجل والجنكويز ا قطع الشك الجميلة، التي كانت قد غادرت للتو، بعد أن ألقت نظرة أخيرة على حمائمها، كأنها تودعها الوداع الأخير..

شعور خفي، ذاك الذي جعل نظرتها تنطوي على كل ذلك الغموض، الذي أخترق نُعاس الحمائم، الغارقة في وسن المِغِيْرِّب!...

مضت قطع الشك بخطى حذرة في الزقاق الضيق، الذي يفضي إلى الساحة الكبيرة، لبندر وادي الذهب، ورغم خطواتها الحذرة ومخاوفها العميقة، لم تلحظ خطى الجنكويز المتوترة، التي كانت تتبعها بحذر الفهود...

سمعت فجأة "طقطقة" مكتومة "لعود" يتكسر تحت وطء أقدام ثقيلة، فالتفتت وإذا بـ الدود أبوحجل ومطاليقه يحاصرونها. بدوا لها ككائنات غريبة، تلوح في عتمّة السواد الحالك، الذي يغلِّف المكان، فأرتعش كيانها كله، وتسمرَّت قدميها على الأرض القردود المشققة، التي كانت لا تزال تنفث "بوخ" ظهيرة الصيف "القيطوني" الحارقة...

حاولت قطع الشك أن تستدير لتفر راجعة، لكن كانت الحلقة التي كوّنها الدود أبوحجل وجنكويزه، تضيق أكثر فأكثر.. غنّاها الدود مواجده وتوجداته. حاولت أن تتماسك.. صدته.. وكانت الحلقة تزداد ضيقا، وظلمة الليل توغل في السواد الحالك، الذي لم يكن ثمة أي نور، بقادر على تبديده أو الإنعكاس عليه، سوى نور عينيها الواسعتان كبحيرتين لا قرار لهما...

في هذه الظلمة الحالكة رأى الدود أهداب قطع الشك المرتعشة، وجفونها التي أخذت تنبض، كقلب متعب لطفل صغير. لحظتها كان على بعد خطوة واحدة منها.. مدّ والجنكويز أياديهم المرتعشة.. عرُّوها تماما.. و...

وفي مثل هذا الوقت قبل عشرات السنوات، كان الشايب الجنزير التقيل، يختبيء خلف إحدى أشجار القمبيل، التي سكنت حركته خلفها تماما. كان كالمسمَّر على الأرض، وكانت رئته تضيق، وهو يحاول ببطء وصمت "شفط" الهواء المشبع برماد حرائق مرتقبة..

تسلل الجنزير التقيل، ببصره الأغصان المتشابكة حوله. رآهم يقتربون منها. كان يفكر أن عليه فعل شيء قبل فوات الآوان.

وكانت لحظتها أصوات الجنكويز العنيفة، والدود الذي كان يحاول بذل أقصى جهد، ليجعل صوته هامساً.. كانت كل هذه الأصوات المتداخلة، تثير في أوصاله قشعريرة كصعق البرق العبادي...

تقدم الدود أبوحجل يحاول أغواء قطع الشك، بصوته الذي كان كفحيح ثعبان "أبو الدرق".. وبعينين مفتوحتين عن آخرهما.

فيما كان الشايب الجنزير التقيل، يراقب الموقف بفرائص ترتعد بين أعشاب "النّال" التي تسلل بعضها جلابيته، وأخذ يداعب ساقيه العاريتين مباشرة..

جلس الجنزير التقيل القرفصاء، وكل جسمه المرتعد يتحول إلى عيون مشدوهة.

لحظتها كان الدود أبو حجل، ينكفيء على قطع الشك كشبح.. كان كما لو أنه يمتطي صهوة حمار "مكّادِي". وكان صوت قطع الشك يأتي خافتا. مهدوداً ومنهداً في العتمَة. آسياً وبارداً وحزيناً..

كان بكل مأساويته يتسرب مفاصل الجنزير التقيل مباشرة، فينكتم فيه كل شيء...

رأى الشايب الجنزير التقيل وسمع كل شئ، فاختل كيانه ولم يعد يشعر بشئ، سوى هذا المشهد الماثل أمامه، والذي سيظل مطبوعاً في ذاكرته ووجدانه، ومحفوراً بالنقوش والرسوم، على جدران المعبد المقدس لجبل كارناسي العظيم، الذي سيوثق فيه وقائع ماجرى...

بعد وقت ليس قصير، تماسك الجنزير التقيل، وأخذ يتسحب خلسة "كالكديس". لم يكن يعلم إلى أين ستقوده قدماه. كان فقط يتبع الضوء السرمدي داخله، والذي كان يقوده عبر دهاليز ماضي غابر، يتداخل في حاضر مرير، يقتفي أثره ليرمي به إلى حياة جديدة قادمة.. بعيدا عن هذا المكان الملعون، الذي لا محالة سينفجر ويتبدد كفقاعات شرار الأندراب... و..

وفي ثمرة الفؤاد تماما كان المطلوق أبو حجل، قد طعن قطع الشك.. غرس "شوتاله" الطويل دون رحمة. ومن الدَّم الذي سال من أقصى أعماق قطع الشك، تشكلّت حمائمها وحلّقت فوق رؤوسهم. تشكل كائناً عجيباً مرعباً كثيف السواد..

تراجع أبو حجل والجنكويز في رعب، والكائن المرعب يتشكل أكثر فأكثر، يغذي فيهم المخاوف والمشاعر المضطربة.

وكانت قطع الشك قد اختفت، مخلفة أثرها على الأرض القردود: قبة من الحجر الكارناسي الأسود وحمائماً كارناسية متحجرة، تجسد الحزن والأسى واللوعة، ومرارات الوادي الضّال...

في اللحظة التي غرَّس فيها الدود شوتاله في ثمرَّة فؤاد قطع الشك، وقع طائر العنقاء من قلب شجرة القمبيل.. إشتعلت فيه النار وأحترق، ومن رماده خرجت دودة بيضاء كاللّبن، تحولت إلى شرّنقة، خرجت منها عنقاء جديدة، حلّقت في الفضاء الرحيب، تشق بجناحيها بحر الهواء نحو السماوات البعيدة، حيث يقيم الروح العظيمة في هدوء بديع، لا يُعكِّر صفوه شئ سوى ضلالات وادي الذهب.

وبعد مئات السنوات تعود لتقيم هناك، بعيداً في وادي الذهب للمرة الثانية، حيث تنفتح بوابات السماء، وتسكب الشمس ضوءها المقدس، لتنبت شجيرة القضيم دائمة الحمُرّة، ويستحيل وادي الذهب إلى مكان جميل دافئ، لا تسكنه أمراض الشيخوخة والخوف والقمع والأحزان..

لا يسكنه الخراب والقتل والموت والدمار..

لا تسكنه أعمال الجنكويز الذين"لا تالي ولا والي " لهم..

لحظتها فقط تستيقظ "العنقاء.. قطع الشك" كل صباح، لتردد أغنية جميلة عذبة عن الجمال المقدس..

٦

عندما خطب الشايب جقندي في الأهالي يحكي وقائع ما حدث، كان البعض يشعر بخوف وفزع شديدين، والبعض تنتابه روح السخرية والدعابة والأعمال السيئة.

وقتها كانت أوراق الشجر الإبرية الرقيقة الشائكة، عبر الهواء الضبابي، تسقط على الأرض القردود المخددة بالشقوق، بعد أن توقفت "نقناقة" المطر الذي كان ما أن يتوقف قليلاً حتى يعاود الهطول.

ومع ذلك كان كل شيء يبدو ساكناً سكون الموتى.. كالذي تنعدم فيه الحركة، ولكنه في الحقيقة كان يغلي كأتون مكتوم..

لحظتها كانت سوميت تستعيد أحاديث الشايب جقندي، الذي منذ حل بوادي الذهب، فتقت أحاديثه رؤاها ورؤيتها، وبدى لها كل شئ واضحا لا لبس فيه.

عندما أعتقلها الجنكويز وقادوها إلى معتقلاتهم، في تلك الكهوف التي إرتبطت بسلسلة معقدة من السراديب الواطئة، التي لا يمكن السير داخلها إلا إنحناءً أو إنكفاءً. كان الجو شديد البرودة في نهاية السرداب، الذي أفضى بهم إلى عدد من الكهوف الضيقة، التي يسجن فيها الجنكويز المطاليق، معتقليهم من المعارضين..

كانت الكهوف تواجه بعضها البعض، لا يفصل بينها سوى السرداب كممر.. وكانت ذاكرتها تستعيد كل شئ في سيرة الوادي، الذي أصبح يلفه الصمت وتحتويه الوحشة والخواء..

كان الجنكويز، يقودهم "أبوشوتال" قد أحرقوا دارها، وقتلوا والديها بشكل وحشي. وكانت الدماء تغلي في عروقها وعيناها لا تتوقفان عن الجريان، بدمع شديد الحزن والمرارة..

تخيلت والدتها التي شنقوها على "الشِعْبّة التي تتوسط التُكُلْ" وتراءى لها والدها وهو يسقط، تحت طعنات أبوشوتال مضرجا في دمه جثة هامدة.

هيمنت على ذاكرتها كل الوقائع والتفاصيل الدقيقة لنزعهما الأخير، وهما يمدّان أياديهما إليها، وهي تمضي بخطى متعثرة، مقيدة بحبال السعف. يدفعها الجنكويز خارج الدار، التي بدأت تتحول إلى كتلة من اللهب تنشر ضوءها في بندر وادي الذّهب، من أقصاه إلى أدناه...

لم تكن الوحيدة التي تم إعتقالها. كان أهالي كثر: رجالا ونساء وصبيانا وصبايا، ومشردين ومشردات. كانوا جميعا مقيدين بحبال السعف، في الساحة التي تتوسط البندر، قبل أن يتم ترحيلهم إلى معتقلات الكهوف.

أخذت سوميت تزحف بصعوبة، على أرض الكهف الضيق. تتحسس في العتَمَة الأجساد الملقاة على الأرض الرطبة، الجافة، القاسية.

حاولت أن تنام في إحدى الزوايا، وهي تشعر أنه لم يتبق لديها عِرق ينبض بالحياة. شعرت في الظلام بيد واهنة، مرتعشة تتحسس ظهرها، وجسد ما يتعثر بجسد آخر. وصوت مكتوم لخطى تبتعد في الخارج..

في السرداب الضيق.. كانت تتلمس مكان تلك اليد الراعشة، التي تحسست ظهرها. يد المخلوق المعدم مثلها، الذي لا تعرف أهو رجل أم إمرأة، أو أيا كان أين سيؤول به المآل.

طوّت يديها على حضنها، والخطى المكتوّمة في السرداب تقترب، ثم لا تلبث أن تبتعد فيسود الصمت المظلم كل شيء.

تناهى إلى سمعها صوت ست البنات المألوف الخافت، كما لو أنه تعرض فجأة لخطر محدق:

"أنهم يقتلون الرجال؟"

قالت ست البنات وأردفت متساءلة:

"ولماذا يبقون علينا؟!"

"سيغتصبوننا"

"ويقتلوننا بعد ذلك؟"

"لا، سيسترقوننا، فنحن ما ملكت إيمانهم"

"جواري!.. سبايا!.. في وطننا؟.. وادي الذهب؟!"..

لم تكن ست البنات ترى سوى الظلام الغارق في "دواية القرع" التي يغمس فيها الشايب جقندي قلمه البوص، ليكتب خواطره على الجلد أو لوح الخشب.. عن الوادي والناس والحرائق المزمنة، فأخذت تجهش ببكاء حار، وكل أحلامها مع عاشميق.. حبيب قلبها تتبدد..

فجأة، شعرت بيد سوميت تربت على رأسها، وتحاول أن تصل بأصابعها إلى جفنيها، لتمسح عنهما الدمع المر، ثم جذبتها إليها. طوقتها بذراعيها وهي تضع رأسها على صدرها. وجسمها.. كل جسمها.. في حضنها المرتعش كريشة "غارنوق" تتلاعب بها "رياح الخماسين" العاتية..

كلتاهما كانتا تغوصان في الظلام والعتمَة، وتحاولان الخروج لمواساة بعضهما، في الأحزان التي غلفت الوادي، وأخذت وألتهمت كل شيء يحبانه..

كلتاهما كانتا تحاولان لكن، لاعزاء في هذا الكهف الغارق في الظلمات والبرودة المطلقة.. في هذه اللحظة اليائسة تراءى جقندي لسوميت، وهو يتكئ برأسه على صدرها لتمشطه له في جدائل كبيرة، بينما "طيرة" عابرة تطل من الكوة المقابلة.. "سكسكت" الطيرة "فسكسك" لها جقندي.. سألته في دهشة:

"شن قالت؟"

"جابت رسالة من أهلي الرُّحَلْ"

إرتفع حاجباها الغزيران.. أردف جقندي:

"الما بجي من جبلك ما بيعرف رطانتك"

في هذه اللحظة اليائسة تتمنى سوميت أن تغمض عينيها ولا تفتحهما، إلا وتجد نفسها قد إنتقلت من هذا المكان الضيق. المتمزق، البائس، إلى أحضان جقندي العامرة بالحب. أولم يقل أنه كاشف؟ قطعت عليها ست البنات خواطرها وهي تتنهد:

"هل سيعذبوننا؟"

"أسمعي سيحاولون الإيقاع بالآخرين والآخريات عبرك، فلا تنسي أنهم مجرد جنكويز"

وتأوهت وهي تدس أصابعها في جدائل ست البنات المتجعدة.. غزيرة الظلمة...

٧

المرّة الثانية التي يتعرض فيها الوادي، وللأسباب نفسها للخراب والدمار، عندما نقل السلطان مقر عاصمته المحصنة بالجبال، إلى ما بين النهرين اللذان ينفتح النهر الغربي منهما على السهل المنسرح إلى حدود دار الريح اليابسة.. ثم عاد مرةً أخرى ونقلها إلى سهول النخيل، المفتوحة على السافل.

وقتها هجمت مفرزة من جيش السافل على الحدود، كانت تطارد مجموعة من الجنكويز، يقودهم الدود أبوحجل. لحقوا بها وقضوا عليها، وتمكن الدود من الهرب بأعجوبة..

بعدها أعد السافل عدته وهجم على وادي الذهب. خربوا حاضرته وعسكروا في كل مكان، إلى أن جمعت الحواضر المحتمية بالجبال جيوشها وطردت الغزاة، وأستردت سلطة سلطانها جبل الحديد، الذي كان قد ورث الملك عن والده السلطان الكرباج للتو، فإنتقلت بذلك العاصمة إلى موقعها القديم: بين الجبال الحصينة، التي يشرف عليها جبل كارناسي المقدس بمهابة وشموخ...

دائما غزاة وادي الذهب يأتون من السافل. ودائما تعلن نهاية غزوهم عن بداية الأسئلة المكرورة المحيرَّة، التي لم يستطع أحد الإجابة عنها، والمتمثلة في نسب وحسب وأصل وفصل سكان الوادي، إلى أن إكتشف أحد الصيادين، في إحدى الصبيحات الهادئة، وأثناء حفره عند جذع جبل كارناسي يتبع أثر أحد "جقور" البرّية كان يطارده بإصرار. عندما إصطدم "شوتاله" بجسم صقيل، فأخذ يفج عنه الصخور الترابية، إلى أن لاح له مايشبه الباب المقوس.

فمضى مسرعاً إلى قلب البندر، ونادى في الأهالي الذين تبعوه.. وأخذوا يزيحون التراب طيلة نهارين ونصف، إلى أن تكشف لهم عن بناء سباعي الشكل، تعتليه قُبَة مزّينة بأيقونات بديعة النقوش والألوان...

وقفوا مذهولين! كان معبداً كاملاً لأسلافهم، زُين بالأيقونات الملوّنة، التي حفظت الأرض القردود وهواء الجبال والسهول الجاف بهائها، فبدى المعبد برسوماته البديعة، كأنه شيد للتو واللحظة...

كانت النقوش والرسوم التي على جدران المعبد، تحكي قصصا كثيرة، عن الجنكويزي الدود أبو حجل والجميلة قطع الشك، وكيف جرّد ورثة العرش الجنكويز المطاليق حملات لغزو الجوار، وكيف قضى عليهم الغزاة الباحثون عن الذهب والعبيد، الذين تحالفوا مع الغزاة البيض، الذين وفدو من خلف الأرخبيلات اللانهائية وتخوم الجليد، والذين بدورهم كانوا يزعمون أنهم وحدهم الذين خصهم الروح العظيمة بشعلة المعرفة المقدسة دونا عن كل الناس؟...

كان الوادي قد إرتج في تلك الليلة كالحة السواد، على وقع حوافر الجيوش الغازية، وهي تدك خصوصا المباني السلطانية، حيث مقر قيادة السلطان وداره.

إنتشر الغزاة على صهوات جيادهم في كل مكان، داخل البندر. عاثوا دماراً شاملاً في الممتلكات والمزارع، ولم تسلم منهم حتى المواشي والزواحف والبرمائيات.

بعدها انطلقت الشائعات حول هروب السلطان التور الجرق، وكامل أفراد أسرته وبعض أعضاء مجلسه، ولم يعثر أحد للجنكويزي شوك الظلمات على أثر، وانطلقت شائعات تفيد بأنه أختفى في مجاهيل صحراء دار الريح القاحلة...

لم تكن أضرار الأهالي بأقل من الأضرار التي أصابت السلطان والأسرة المالكة. كان المناخ العام مضطرباً، والأهالي يحاولون تضميد جراحاتهم بصمت، متجنبين أي نوع من الأحاديث التي قد تثير حفيظة الغزاة...

وكان الغزاة الذين نهبوا ثروات الوادي، ونقلوها إلى بلدانهم البعيدة. أسروا الشيوخ والعمد والعقلاء، وعاملوا الأسرى بقسوة شديدة. إذ إغتصبوا النساء في حملات دفتردار إنتقامية، وقطعوا أوصال أعضاء مجلس السلطان قبل شطرهم شطرين، من قمة الرأس حتى ما بين الفخذين، ولم يتم إسترداد وادي الذهب مرة أخرى إلا بعد وقت طويل، بعد أن نجح سلطان الوادي المهزوم، في عقد إتفاق مع غُزاة السافل وحلفائهم البيض، قضى بأن يقدم وادي الذهب في كل عام مائة زكيبة من الذهب، ومثلها من العاج وريش النعام و٨٠٠ عبد و٦ أفيال، ومثلها زرافات. وعشرة نمور ومائتين ثور وبقرة، مناصفة. ودينارين لكل فرد..

من منفاه البديع وافق السلطان.. وهكذا انسحب الغزاة.. أطلق بعض الأهالي الخبثاء على يوم عقد الإتفاق إسم "الاستقلال" وتبجح بعض أعضاء مجلس السلطان بفخر، أنهم هم من عقد الإتفاق ورفعوا راية وادي الذهب لترفرف "عالية خفاقة!"..

في ذلك اليوم.. يوم فرض الجزية المشؤوم تبادل الأهالي التحايا والأمنيات، وشربوا كثيراً من "البقو" و"عرقي البلح البكري".

كانوا فرحين ومزهووين بما حدث لهم من خزي وعار، بإنتصار متوهم.. أنساهم قتلاهم ونساءهم المغتصبات الحوامل، اللائي لن يلبثن يلدن (جنكويزاً) جدد..

أنتصار مزعوم غيب عنهم ويلات الدمار الكبير، الذي شهده الوادي. الذي كان قد تغير كثيرا إلى حد رهيب ومفزع..

إذن إنسحب الغزاة، بعد أن خلفوا وراءهم قيود "الجزية" السنوية، التي قادت إلى الإنقسامات والحروبات الداخلية، بين عشائر و"خشوم بيوت" وادي الذهب، التي أخذت تسرق و تسترق بعضها البعض، لتفي بمستحقات جزية الغزاة السنوية، وهكذا استشرت الخصومات، وعم الفساد والفقر والجهل والمرض، فكان كل ذلك بمثابة بداية النهاية في الإنهيار الثاني...

كانت النقوش التي على جبل "كارناسي" المقدس تحكي أيضا عن شعلة المعرفة المقدسة، التي أعطاها "الروح العظيمة" للشايب "الجنزير التقيل" ليحميها ويوقدها. لتضيء كل أنحاء الوادي، دون أن يطفئها أبداً..

هذه الشعلة التي سرقها الجنكويزي المطلوق الدود أبوحجل، ليحرم الأهالي الإبداع، فمنذ أضاءت شعلة المعرفة الوادي، تمكن الأهالي من إكتشاف الحديد وتعدينه، وإختراع أدوات الصيد والزراعة والنجارة. كما عرفوا الوقت والألوان، وتفتقت مواهبهم في نقش الحجر، والرَّسم على الجدران، رسومات بديعة تعبر عن حياتهم الروحية والإجتماعية...

كان الجنزير التقيل يرى أن المعرفة لا ينبغي حصرها فيه "كحام لها" وفي كهنة معبد كارناسي المقدس العتيق، وفي السلطان وعشيرته وأعضاء مجلسه "كطبقة حاكمة".. كان يرى وجوب أن تشمل المعرفة بنورها الأهالي وتتمدد لتصل كل العالم.

وكان الجنكويزي الدود أبوحجل، كأحد أفراد العائلة المالكة، يرى العكس تماما. وبقدر ما كتب الشايب الجنزير التقيل القصائد الطوال، التي تمجد الأهالي وإبداعاتهم، وتدين عزلة العشيّرة المالكة عنهم وترفعهم عليهم وإحتقارهم لهم، بقدر ما رد الجنكويزي أبو حجل بقصائد ركيكة بذيئة، إنطوت على نزوعه العنصري وفجاجته الفظيعة، لاحقاً..

وبعد عشرات السنوات سيعتمد أبوشوتال على هذه القصائد للتأكيد على عراقته!.. كانت قصائد "ثقيلة الدم" وبائسة تفتقر لسلاسة ورصانة قصائد الجنزير التقيل..

تدخل "الروح العظيمة" مخترقا أحلامهما مراراً وتكراراً.. حاول إثناء الدود عن أفكاره الشريرة المدمرة، ومحذراً الجنزير التقيل من غدر الدود ونواياه المبيتة لسرقة الشعلة وإحتكارها..

وعندما تمكن الدود بالفعل من سرقة الشعلة المقدسة، وأضاءها في بيته المظلم، الذي تحاصر رائحة العطن كل أركانه، تفجر كل شيء وأحترق البيت، وتمكن الدود من الفرار بأعجوبة، حيث ظل يقيم في كهف أشدّ ظُلمّة من ليالي الخوف الطويلة، لا يبعد كثيراً عن جبل كارناسي المقدس، الذي لم يكن أحد يعلم أن به كهفاً -وقتها- أو أن هذا الكهف هو "الوكر" السِّرِّي الآمن للشايب الجنزير التقيل وأعوانه من المشردين...

شيئا فشيئا بدأ مطاليق الدود الجنكويز يتجمعون ويخططون مع بعضهم البعض للإنقلاب على العرش، بعد أن دبت الفتنة في مجلس السلطان وعصفت به فانقسم جنكويزه، بعد أن لفظتهم خشوم بيوتهم..

وشيئا فشيئا بدأوا ينسحبون من مجلس السلطان ومقرات خدمة المملكة، ليلتفوا حول الدود كقائد مطلق لنزواتهم وجرائمهم وجرائرهم، يتبعهم مطاليق الوادي الذين جاءوا من قِبَلْ الوادي الأربعة..

في تلك الظهيرة الغائظة، التي أعلن فيها الجنكويز ولائهم التام للدود أبوحجل خصوصاً المطلوق أبوالدرداق، خرج الشايب الجنزير التقيل من داره.

لم يسلك الطريق المؤدي إلى الساحة، التي تتوسط بندر الوادي، بل مضى بإتجاه درب معوَّج، رصف بالحجارة الصغيرة، تراصت على جانبيه أشجار القمبيل، وعلى مبعدة منه كانت تبدأ سلسلة بيوت أعضاء مجلس السلطان الحجرية العالية. المحاطة بالأسوار، حتى لتبدو كقلعة واحدة ممتدة وكبيرة..

ثمَّة أبقار على الجانب الآخر ترعى "العنكوليب" و"العدار" بهدوء ودعة، خَلّيَة البال من الغموض والحذر، الذي يلف الوادي..

ووراء الأفق كان جبل كارناسي يلوح شامخاً، كطود يقاوم تلاعب موجات الزَّمان. تسرب الجنزير التقيل شعور مبهم، فهزَّ رأسه وواصل مسيره.

كان راعش النظرات.. واجف القلب وساهم العقل. إلى أن وصل إلى جبل كارناسي، وعبر إلى حيث الكهف القُبابي الملتصق بجذوع الجبل، حيث يعمل المشردون الذين يعتني بهم وقطع الشك، على نحت معبد في الصخر..

كان المشردون وقتها قد أنهوا نحت المعبد، فبدى جبل كارناسي من الخارج، كأنه جبلان، ينفصلان عند الجزع ويلتقيان عند قُبة الكهف، الذي قاموا بتوسعته من الداخل على نحو سباعي..

لم يكن قد تبقى سوى نحت مدخله المتقوِّس الصغِّير، ليبدأ الجنزير التقيل بعدها، في رسوماته ونقوشه، يعاونه الأطفال المشردون.

تفحص الجنزير جدران المعبد، وتحسسها بيديه. كان المشردون ملتفون حوله، يتأملونه في دهشة، فللمرَّة الأولى ينتبهون أنه أصبح أكثر ضآلة، وظهره أصبح أكثر تقوساً وإنحناء. كان الجنزير قد تقدم في السن فجأة، على نحو باغتهم جميعا.

لأول مرة يلحظون الشيب الكثيف الذي غزا شعره بلا هوادة. كان الطريق المفضي إلى المعبد، محاط بالكثير من شوك "الضريسة والحسكنيت" والجروف الصّخرية، التي إشتملت على كهوف صغيرة وجحور، نسج العنكبوت على مداخلها خيوطه، وأقامت فيها "القمارِّي" أعشاشها..

خلف هذه الجروف تمدد السهل الواسع الخصب، الذي شكّلت فيه أشجار القمبيل، دغلاً يلقي بظلاله على مدخل المعبد من بعيد.

كان الجنزير ينتبه لكل ذلك للمرَّة الأولى. كأنه يرى لأول مرّة هذه الطبيعة الغريبة، حول جبل كارناسي، بما تضفيه على الجبل من رهبة وغموض.

كان الجو حول جبل كارناسي إذن غامضا غموض الأحاسيس، التي ظلت تهيمن عليه منذِّرَة بقرب النهاية الوشيكة للوادي الحزين.

كان الجنزير منذ الرحيل المأساوي لقطع الشك، وسرقة الدود لشعلة المعرفة المقدسة، قد فقد الأمل تماماً حول الماضي والحاضر.. فقد ظل يحلم كل ليلة منذ عشرات السنوات، وظل الحاضر على الدوام يكذِّب أحلامه الوديعة، فالطيبين

والصالحين في وادي الذهب، ظلوا يغادرون هكذا فجأة، دون تهيئة أو مقدمات.. دون مواعيد. فقط يختفون على نحوٍ مباغت، دون سابق إنذار، أو يعثر الأهالي على جثثهم طافية على سطح ماء النهر!..

أخذت عيناه تترقرقان بدموع هي مزيج من المرارَّة والحموضة اللاسعة.. مسح الجنزير على جدار المعبد برفق، ووضع "منقاشه" لينقش أولى الحكايا عن الجنكويز، الذين كانوا يسممون الحفاير والآبار والترع، ويسرقون الأبقار ويجامعون بعضهم البعض، وينشرون المؤامرات والدسائس، ويبثون الشائعات ويختطفون فتيات الوادي العذراوات ليتعاقبون على إغتصابهن، بعد أن يغتصبهن الدود أبوحجل أولاً...

٨

عند قوز الدُّخن في تلك الأمسية الهادئة، إلتقت الجميلة سوميت، الشايب جقندي للمرَّة الأولى. كان قد قدم للتو في قوافل قومه "المرَّاحِيْلْ" الذين لم يلبثوا سوى يوماً أو بعض يوم، تركوه بعدها خلفهم ومضوا في رحلتهم الأبدية.

شعرت "سوميت" بقوّة خفيَّة تدفعها دفعا إليه، حاولت مقاومتها للحظات ففشلت، وأخذت تدنو منه في بطء شديد، أخذت تسير تجاهه كالتي يأخذها "حمار النوم" بينما كان هو يتفحصها بعينين هادئتين، خابيتين كعينا صقر عجوز.

بدت له في ملامحها المرتخية، دافئة القلب بشعرها الأجعد القصير، الذي مشطته في جدائل كبيرة إلى الخلف، وجلابيتها القصيرة كجلابيب الأطفال، حتى ليكاد يرى طرف "كنفوسها"..

كانت سوميت ذات عينان بنيتين شاحبتين، أما بطة ساقها أو الجزء ما بين الكعب وتجويف الركبة من الخلف، فقد بدى أبنوسياً صقيلاً ولامعاً وقوياً وجميلاً جداً.. الشايب جقندي خلال عمره المديد، لم يشعر يوما بقلبه يخفق لإمرأة قط، سوى "البِنَيَة" الجميلة كاكا، فمنذ طفولته الباكرة كان دائماً يشعر بنفسه مختلفاً عن الآخرين، ومع ذلك ترك الأمور تجري على عواهنها.

تعرَّف على كثيرات خلال ترحاله المستمر: ريفيات، بائعات في أسواق "أم دورور" أو محطات طرق القوافل والدواب، حضريات عاملات في دواوين السلاطين. نساء متزوجات أو لم يسبق لهن الزواج. فتيات جدد ربما يلتقيهن مصادفة،

وربما تقصدن لقاءه. لكنه لم يسعى أبدا للتعرف عليهن، إلى أن ألقى رحاله بوادي الذهب، وتعرف على "سوميت" التي في سن أحفاده لو كان متزوجاً.

كانت تجيئه في العصارَى تدهم عزلته. تجلس بمواجهته، لتسمع تعاليم "الروح العظيمة" وحكايا الأسلاف الغابرين.. فلا تشعر بالزّمن، عندما يعلن مساء الوادي الموحش مقدمه الكئيب.

كانا يتحدثان حول مواضيع مختلفة، وهما يدخنان "الكدوس" و"يسفان التمباك" وربما يشربان قليلاً من "البقو"..

لم تكن سوميت من ذلك النوع من الفتيات المغرمات بالأحاديث الأنثوية الناعمة، كانت في داخلها تتفجر بطاقة عظيمة، تطمح لتغيير الوادي والناس والأشياء. تحاول هدم كل شيء لتبنيه من جديد..

كانت دائما منشغلة بأحوال الوادي، تلهمها رسالة الشايب جقندي، وتغذي فيها إرادة التغيير. وكان أن تفتق ذهنها عن الإعتناء بالمشردين، فقد أوحى لها جقندي بما أوحى عن المشردين وبنت ود المنا والجنزير التقيل، فالتقطت القفاز، وأخذت توظف طاقاتهم لما يخدمهم ويخدم الأهالي البسطاء، تماماً كما فعل الجنزير وقطع الشك وبنت ود المنا وعمسيب قبل عشرات السنوات..

إلتف الأهالي حول سوميت والمشردين، الذين كانوا قد شيدوا بمساعدة سوميت وجقندي داراً كبيرة من صخور جبل كارناسي.

وأخذوا يمضون في الصبيحات الباكرة لمساعدة الأهالي في "نفير" الحصاد، ليأتوا بعدها.. يجلسون في "خلوَّة" جقندي، يتلقون علوم الأولين والآخرين. وكانت أفكار سوميت وجقندي تجاههم تكبر، وكانت أفكارهم هم ذاتهم تكبر، إلى أن عبرت عن نفسها في تلك الشعارات الثورية الأنيقة، التي نحتوها على الجدر الخارجية لبيوت أهالي البندر، تعارض السلطان وجنكويزه.

كانوا يحلمون بوادي آخر غير هذا الوادي الغارق في مأساته الوجودية المحيرّة.. وادي وادع كالذي أبدعه "الروح العظيمة" في البدء. فوادي الذهب بالنسبة لهم كان هو المكان الأليف، الذي إختاره الخالق "لِعِيَالِهِ" بسهوله الممتدة التي يتوسطها جبل كارناسي بمهابة وشموخ، حيث القمارّي تشنف مسام الفضاء الرحيب، وحيث تنتقل الأغنيات وأصداؤها إلى السماء البعيدة، موطن "الروح العظيمة".

الجبال المتفرّقة تحيط وادي الذهب كأسورة على جانبي النهر، الذي يشق الوادي إلى نصفين. هذا النَّهر الذي يتغذَّى من الأمطار الغزِيرة، المنحدرة من تبستي، والتي تعبر الصحراء تحملها وديان "قلول" و"خيران ساورا" إلى سهول "قبانيت" وغابات مارتجلو الواسعة، إلى أقصى دار الرّيح والسافل ودار صباح، متخللة أشجار الحرَّاز والأراك، وكذلك النخيل والدوم والتبلدي والدليب والسِّدِرْ والعرديب والتبلدي، والأشجار الأخرى غير المثمرة، التي راجت بسببها تجارة

الأخشاب والأثاثات والأدوية ومستحضرات التجميل، إذ ليس الأشجار وحدها كـ "القرض" ما يميز وادي الذهب، بل أعشاب السناسنا والمحرِّيب واليانسون، وجذور السِّعْدَة الجرفية.

وأعشاب كثيرَة وجذّور نادرة، تنتشر في كل مكان: "قَيْفْ" النّهر، ضفاف الوديان والخيران والحفائر والتُرّع، والسهول ماوراء النّهر في صعوده..

إختار "الروح العظيمة" هذا المكان لـ "عِيَالِهِ" بعناية فائقة، أراد لهم هذه الغّابَة الكثيفة من الشجر، الذي تختبيء خلفه حتى الجبال الشاهقة، أن تكون ملاذاً وحضنا دافئاً، تلجأ إليه حتى الطيور الهاربة من جور الطبيعة، وغضب الطقس..

تلجأ إليه من مشارق الأرض ومغاربها، بألوانها وأشكالها وأحجامها المختلفة، لتوحد أنغامها في نغم واحد يخلخل فضاء "الوازا" العريض، ويقض مضجع "الربابات والدلاليك وأم كيكي"... نغم واحد، متوحد ووحيد.. تطرب له كواسر الغابات والجبال، والزواحف والأرض القرود والغزلان و"جِدَادْ" الخلا، فيتحول كل ما هو كاسر وقاتل إلى أليف ووديع، مسحوراً بهذه الموسيقى المحملّة بروح السماوات البعيدة..

هكذا كان المشردون يتصوّرون وادي الذهب، الذي تضخمت مياه نهره، بفعل الأمطار الغزيرة في "أقصى الصعيد ودار صباح" حيث المنابع الإلهية الغامضة، التي تتدفق من أعالي الهضاب، إلى الوديان العميقة، وحيث الشلالات الهادرة، التي تتوحد مياهها في مجرى النّهر، الذي يتفرع ليتوحد. ويتوحد ليتفرع، فيسمع المزارعين والرعاة "جَلبغة" الماء الذي يحمل "عُشبة معونة النيل" ونباتات المستنقعات الضحلة، في إحتكاكها بالزّبد والرّغوة كنغم مهيب.

ففي وادي الذهب تنتهي الحياة.. لتبدأ مرّة أخرى من جديد.. في طمّي النّهر وفيضاناته، التي تطفئ حرائق كل لعنات التاريخ القديمة والجديدة، حيث تنطبع صورة الطبيعة على جدار الذاكرة، سرمدية كالأزل...

ربما يختفي وادي الذهب حينا من الدهر، ولكن النّهر الذي يشقه نصفين دائما يبقى خالداً إلى أبد الآبدين، ليلهم الأقوام الجدد الذين يتعاقبون على وراثة الوادي، الحكايات الأزلية، التي تتضمن تفاصيل ما كان وما سيكون، فوادي الذهب كالعنقاء يخرج من الموت ليحيا من جديد، أشد فتوةً وصبا.. يتجدد في رماد الحرائق التي دائما يشعلها الجنكويز عبر التاريخ...

فالأهالي الذين قضى عليهم التنين والخرتيت والعنقاء في الدمار الثاني، قبل عشرات السنوات. إثر سرقة الدود أبوحجل لشعلة المعرفة، وإغتصاب وقتل البِنيَة الجميلة قطع الشك. تهيمن على أحفاد الناجين منهم عقيدة قوية، تتمثل في أن: "هذا المكان خلق للتجدد الدائم الذي لا ينتهي، فهو ليس وعاءً لوحدة أهالي الوادي فحسب، بل هو نواة لوحدة الجنس البشري مرة أخرى، كما أراد "الروح العظيمة" في البدء" وهو ما ظل التاريخ يثبته عبر حيله وطرقه الغامضة، فبعد عشرات السنوات من كل خراب يعود أحفاد الناجون مرة أخرى لتعمير الوادي، بكل ما أكتسبوه من خبرات ومعارف في ترحالهم الأبدي، تعينهم ذاكرة الأسلاف المتناقلة عبر الأجيال، للبداية من جديد.

على وادي الذهب تعاقب أقوام وأقوام، بدءً بسكان أطلانتيس الذين أدمنو عشق العلوم، فالأغاريق الذين تتيموا بالتجارة.. وإنتهاء بالألبان والمصريين والمستعربين من سكان الشرق السعيد، الذين تفتقت مواهبهم عن تجارة الرقيق.. دائما يتوافد الناس من كل مكان إلى وادي الذهب، حينا كتجار وحينا كمبشرين بالديانات والعقائد والمعتقدات، وحينا آخر كغزاة ومحتلين أو جنكويز من سدّنة السلطان...

ولطالما عشق أهالي الوادي موسيقى "الوازا" و"الربابة" و"أم كيكي" و"الدلوكة" في مناسباتهم المختلفة، سواء التي ترتبط بالحصاد أو الأفراح الإجتماعية والمناسبات السعيدة، أوحتى في أحزانهم المنسية، وطقوسهم الروحية التي "يجدعون فيها النّار"..

في وادي الذهب تصدح الموسيقى في كل الأوقات والأماكن، تؤجج حلقات الرقص الجماعي، في كرنفالات غائرة في قلب طفولة الإنسان وجراحاته الأزلية.

فالموسيقى التي في الدروب والطرقات والشوارع، تمتزج في خرير الجداول وحفيف النّال والنباتات الشائكة المزهرة وغير المزهرة، التي تلونها بمذاق خاص، يتوحد مع موسيقى الطيور، التي يطرب لها حتى الحجر والشجر، والأرض القردود المخددة بالشقوق.

أهالي الوادي ورثوا عن أسلافهم زراعة "أم بحتي" في المغمورات والمنخفضات في "نيرتتي وتمبسكو" فهم يزرعون قريباً من مساكنهم "جبراكات" وبعيداً عنها "حواشات".

لكن الحبوب والبذور والموالح و"القُوّارْ" والمحاصيل النّادرة الأخرى، في عالم تهدده المجاعات، فتحت شهية الشركات في الحوار وما وراء البحر الملون. أصبحت كاللعنة على الوادي بسبب التقاطر عليه من كل فجاج الأرض، وتحميله فوق طاقته، كوادي رغم ثراءه منهار تنموياً!

فالأهالي بحكم ريفيتهم لا يستطيعون حصاد محاصيلهم الغنية كلها، لذا يتركون معظمها طعاماً للطيور والمواشي، التي هي حيوانات مقدسة "خصوصاً الأبقار" التي لا يستثمرونها لإرتباطها بمواقعهم في المجتمع. وأوضاعهم الإعتبارية في تراتبية السلطنة!..

ومثلما أعطى وادي الذهب سكانه الخيرات، التي على سطحه. لم يبخل عليهم بما في باطنه من إحتياطيات جوفية، بدء بالماء وإنتهاء بالمعادن والغازات، التي لم يستفيدوا من أي منها، فهم لا يعدنون سوى الذهب بوسائلهم البدائية.

٩

منذ تناهت إلى مسامع الشايب "الجنزير التقيل" أغنيات الجنكويزي المطلوق الدود أبوحجل وقصائده الطوال، التي جسدت تلك اللحظات الدامية، المخيفة لمقتل قطع الشك.. مضى ينذر الأهالي من الخراب والدمار القادم، عقاباً لهم لأنهم صموا آذانهم عن الخطايا والفساد وصمتوا، وقتها كان "الروح العظيمة" قد أنهى خلق التنين والخرتيت والعنقاء..

وفي المحاولات الدؤوبة للجنزير التقيل، في إيجاد تفسير لسلوك الدود أبو حجل والجنكويز المطاليق، ظلت أفكاره تلف وتدور حول فكرة محددة، تتمثل في أن السلطان وبطانته، يفتقرون لذلك التوازن الدقيق، في كيمياء أجسامهم وإحساساهم بالآخرين والطبيعة حولهم، ما يجعلهم ليسوا ثقلاء لا دم لهم فحسب، بل ومضادين لفكرة المجتمع الموحد.. حول فكرة وادي الذهب كوطن يسع الجميع...

ومع ذلك كان قلقاً بشأنهم، إذ كانوا بنظره مخلوقات ضعيفة، بائسة ويائسة من رحمة "الروح العظيمة"وسعة صدره، التي بإمكانها أن تحتمل كل شيء.

وفي الواقع كانت هذه الفكرة لا تهيمن عليه فقط، بل تزيد من حجم الشكوك داخله، في قدرة هؤلاء البؤساء اليائسين، الذين لا أمل لهم على الصمود، إذا ما تمت تعريتهم ومواجهتهم بأمراضهم غير الطبيعية المستفحلة، التي لا يمكن لأي محاليل أو أعشاب أو "محايات أو بخرات أو حجبات" من تخفيف أدوائها أو أعراضها، بحيث ليس من ثمة حل، سوى التخلص منهم نهائياً وإلى الأبد، ليرقدوا في نيران الحياة الآخرة دون سلام أو سكينة! تؤرقهم اللعنات الأبدية.

لكنه يخشى في هذه الحالة، تحولهم إلى ذكريات؟! فالذكريات طبيعتها الصمود بوجه عوامل تعرية أو تبديد الذاكرة، ومقاومة النسيان. بالتالي ربما يلهمون آخرين لديهم القابلية لنفس الأدواء البائدة، التي قد تؤدي إلى سلسلة من التغييرات تعتري مواقفهم ممن يعارضونهم، ومن فكرة وحدة وادي الذهب كموطن للجميع..

خصوصا الأهالي الذين رغم بساطة غالبيتهم، بإمكانهم أن يروا بوضوح: كم الألم والعذاب والشقاء، الذي يغلف الوادي، بسبب سياسات السلطان ومطاليقه. وبسبب أرواحهم العليلة البائسة، التي يمكن لأي كان إكتشافها بنظرة عابرة، مهما تضاءلت قدراته أو كان في عجلة من أمره، والتي لا يمكن شفائها!..

أنهم يمارسون ويعانون شقاءهم الأبدي.. كوابيسهم الوجودية، لأنهم يفتقرون للأمل، ويعوزهم بالتالي الإحساس بالتفاؤل والحرية.. بالتالي إرادة الحياة الطبيعية، بعد أن تمكن منهم الإنحراف والفساد والجنون المزمن، الذي حوَّل أي شيء جميل يمكن أن يولد داخلهم، إلى "هبود" أو "سكن" أو "هباب" كهباب شرار "الأندراب"..

والآن عندما يختلي الشايب جقندي بنفسه، بعد عشرات السنوات، ليستعيد تأملات جده الأكبر الشايب الجنزير التقيل، ويتأمل سيرته وسيرة ما مضى، لا يملك سوى أن يقول أن: التاريخ يعيد نفسه بطرق وحيل ملتوية! فمثلما أغتصب الجنكويز قطع الشك وقتلوها، ها هم أحفادهم الآن يغتصبون سوميت ويقتلونها!...

١٠

فبعد أن خطب الشايب جقندي في الأهالي، يحرضهم ويعبئهم ويحذرهم، وقام المشردون بتهريبه وتأمينه بعيداً عن عيون الجنكويز، تمكنوا بعدها في صبيحة اليوم التالي، الذي سلم فيه الجنكويز جثمان سوميت للأهالي، من حشد الأهالي الذين تجمهروا بشكل مفاجيء وغير مسبوق، أمام قلعة السلطان، التي كانت موصدة الأبواب، ومحاطة من كل الجهات بالمتاريس، التي صنعت من أشجار الطلح والكِتِرْ والهشاب والسِّدِرْ الشوكية...

كانت أصوات الأهالي المسلحين بالحجارة و"السفاريك" تتعالى مستنكرة ما حدث، وهم يحاولون اختراق المتاريس، التي إنتشر المطاليق خلفها "بشوتالاتهم" وحرابهم و"نشاباتهم" وسيوفهم المعقوفة.

في البدء تراجعوا أمام حجارة وسفاريك الأهالي التي أخذت تهطل من كل مكان. ثم بدأو بعد ذلك يطلقون الحراب والسهام، فأخذ الأهالي يتراجعون، بعد أن وقعت إصابات قاتلة عديدة في صفوفهم.

في اليوم التالي كانت حالة الهرج والمرج، التي سادت بندر الوادي قد إنقشعت وتبددت تماماً، كأن شيئاً لم يكن. وكان الجنكويز وقتها قد إنتشروا في الشوارع والدروب، يداهمون بيوت الأهالي العُزَّل، حتى لم يعد ثمة كهف أو سرداب في بندر الوادي، لم يمتليء عن آخره بالمعتقلين الواقعين تحت تأثير التعذيب. الذين لأيام عديدة ظلت صرخاتهم تخترق الكهوف والسراديب المعتمة، لتملأ بأنينها الملتاع فضاء الوادي، الذي توشح بالوحشة والكآبة.

لقد كان الشايب الجنزير التقيل ومن بعده جقندي محقان تماماً في إعتقاداتهما حول الجنكويز، ذوي الرؤوس المتعفنة التي تمتليء بصديد الكراهية والأحقاد والضغائن.. وليس من المصادفة أن يكون من بعض الأهالي العاديين جنكويز، يعذبون ربما جيرانهم في "الحلة" أو يقتلونهم..

ليس من المصادفة أن يجند الجنكويز بعض الخونة من أوساط الأهالي، الذين بالإمكان أن تجدهم في أي مكان "لشدة عاديتهم" فدائما ما يبدو عليهم أن "لا ناقة ولا جمل لهم فيما يجري" بينما هم الناقة والجمل ذات نفسيهما!...

اختراق الجنكويز للأهالي بتجنيد بعض الناس العاديين والبسطاء، ساهم في نشر أفكارهم العنصرية الهدَّامة التي يعتقد فيها السلطان وبطانته، هذه الأفكار المستمدة من قصائد الدود التي عُثر عليها في معبد كهف كارناسي المقدس..

أخذت هذه الأفكار البغيضة تنتشر في الوادي إنتشار النار في الهشيم، إلى الحد الذي قررت فيه حاضرة الصعيد ودار الريح ودار صباح، وحواضر أخرى، الإنفصال تماما عن وادي الذهب، وبناء سلطناتهم المستقلة؟!...

فالبسطاء الذين جندهم المطاليق، كانوا أشد خطراً من المطاليق أنفسهم، فالمطاليق معروفون ولكن هؤلاء يعملون لحساب المطاليق خفية؟!.

يقومون بما يطلبه منهم الجنكويز. يرشدون عن أماكن تواجد المشردين، الذين كانت تقودهم سوميت، والتي كانت تعمل في سرية تامة، وياتون بأخبار الشايب جقندي وكل من يلتقيه من الأهالي.

بل كانوا يزورون المعتقلات ملثمين ليصنفون مدى خطورة هذا أو ذاك. أو يشاركون في التعذيب والإغتصاب والقتل إذا لزم الأمر. يفعلون كل ذلك دون أن يفهموا حقيقة نفوسهم المتهرئة، التي تفتقر للضمير، ودون أن يفهموا حقيقة ما يجري حولهم في الوادي، فقد تركوا لأكاذيب السلطان وبطانته من الجنكويز، أن "تعشعش" في رؤوسهم المتعفنة ووجداناتهم الخربة، دون أن يتريثوا ليدركوا حقيقة كون أن كل ما لُقنوه، لا علاقة له بالعِرق أو القداسة أو رسائل السماء، فما لقنوه لا يتعدى كونه محض أكاذيب وهُراءات وأوهام بغيضة!...

لذلك عندما يختلي الشايب جقندي بنفسه، أول ما يطفر إلى سطح ذاكرته هو تلك الليلة البعيدة، شديدة الحُلكة. من ليال صيف غابر، فيشعر بقشعريرة تسري في جسده كله، فينتفض كفرخ طائر بلله مياه المطر، وتنتابه حالة من الهذيان والإرتعاش، فيهتز كالمقرور الذي يقف على أهداب"صرعة" تعصف بأوصاله الناحلة، التي هدّتها سنوات الترحال والتجوال، فيتصبب جسمه بعرق غزير يروي الأرض القردود، التي أنهكتها ظهيرات الصيف "القيطوني" الحارقة بحرّها السموم..

أنه الصيف إذن ما يشعل في النفس الذكريات البعيدة..

ففي أمسيات الصيف المتلهفة والمتقلبة، عادة ما يختلي جقندي آخر أحفاد الجنزير التقيل الناجين من الدّمار الأول بنفسه، فتستعيد ذاكرته وقائع وأحداث منصرمة، بحساسية المشردون الذين نقشوا على جدران معبد جبل كارناسي، أياقينهم المضادة للنسيان والتّلف...

ظل جقندي طوال عمره يحلم بوادي آخر للذهب. وادي أجمل، يعشق ناسه الحياة.. وادي بإستطاعته نسيان الحروب والإنقسامات والتشظي وحكاية الدود أبوحجل وقطع الشك. وتكرار قصة الناجين من الحروبات، التي تدمر المكان والناس والأشياء والذاكرة، وكل العواطف والمشاعر الإنسانية النبيلة.

ظلت ذاكرة جقندي المتقدَّة نفسها تقاوم النسيان بعد مقتل سوميت.. نسيان الأحقاد والضغائن والصلف والغرور، الذي لطالما جابه به الجنكويز الأهالي البسطاء، الذين لا حيلة ولا حول ولا قوة لهم!

هذه الصفات التي لطالما توقعوا عبر تاريخ أسلافهم المديد، منذ أطلقوا على يوم الهزيمة إسم"الاستقلال" إندثارها.. فلم تندثر بل تولدت عنها صفات أخرى أشد مقتاً وسوءاً...

والآن، وبعد كل هذه السنوات.. تم إغتيال بذرة الحلم، وروح التفاؤل والأمل نهائيا، بل تم تقطيع أوصالها والتمثيل بنواتها ونويتها، حتى لا تقوم لها قائمة مرَّة أخرى، فاستحال وادي الذهب إلى مكان لا يصلح للعيش البشري!..

مكان مشبع بالخوف والقمع والدَّم والدموع.. مكان ثرواته المتنوعة محض ريع للسلطان وبطانته.. للجنكويز.. الذين يديرونه على هواهم... كم يلزمهم من الوقت ليعرفوا كيف يحبون بعضهم البعض ويعشقون الحياة. كم يلزمهم من وقت ليكفوا عن إيذاء بعضهم وإيذاء الأهالي.

أنهم يغتالون"هُوِّيتهم"..

ذكرياتهم..

ذّاكرة أسلافهم...

١١

مسح الشايب جقندي من على وجهه حبات العرق المتفصد. كان الماضي.. كل الماضي يتقدم لينغرس في ملامح وجهه، فتنكفئ عيناه المتعبتان على طيوف التاريخ، لتغسله من خطاياه الرهيبة.. تفتحه على قلوب الأهالي الطيبين: راعشاً

كنبض الحب، ودافئا كطقس "جدع النار".. مؤرقاً كالحنين.. وغزيراً كمطر "العِيْنّة" في تلك الليلة البعيدة، التي احترق فيها وادي الذهب، وتحوّل إلى كتلة من اللهب الكلي، الذي يتغذّى من دماء قطع الشك.

كانت ألسنة اللهب ترفرف عالية، وأشجار القمبيل والقنا و"قش النَّال" تتحول إلى "هَبود" مدمي.. نعم، غزيراً كمطر "العينة".

في تلك الليلة التي في رحم الغيب، التي لا محالة ستأتي لتغسل عار الجنكويز وهم يدسون مزيداً من السم للأطفال المشردين:

"لكنهم لم يموتوا!!"

أسرَّ الشايب جقندي لنفسه.

كان الأطفال المشردون قد فقدوا عائلاتهم في حروب العشيرة الملكية، ضد بطون وأفخاذ وعشائر الوادي، ففقدو دفء الأسرة والمأوى، وأفترشوا الطرقات الكئيبة، الخارجة لتوها من الحروبات والإنقسامات الداخلية، لتتهيأ لحروبات وإنقسامات جديدة.

كانوا يعانون الجوع والحرمان، وبكل الإنهاك الذي إعتراهم دفعهم يقين خفي.. غامض، لإعتقاد كاذب بأنهم يوما ما سيحصلون على طعام شهي، عندما جاءهم الجنكويز في غمرة هذا اليقين المضلل، ودعوهم لوليمة فاخرة، في تلك الأمسية المتفردة بظلمتها المبكرة، وبعد أن غادروا الوليمة بوقت ليس قصير، بدأوا يتساقطون موتى واحداً تلو الآخر، على الممرات الطينية الضيقة، التي تشق وادي الذهب طولا وعرضا..

همهم الشايب جقندي وهو يسر لنفسه:

"يظنون أنها الوسيلة المثلى للتخلص منهم! في الحقيقة التخلص من سؤتهم هم، لكنهم لم يقتلوهم.. لم يموتوا فقد كسروا حاجز الصمت.. قتلهم:

"كسر ضهر السلطان وجنكويزه كسراً لا ينجبر"...

وبالفعل كان الوادي وقتها يتململ.. بكل غموض جراحاته، نازفاً في خوفه وهلعه، مرتاعاً من فكرة "التفتيش" في دواخل سكانه المنهوبين، الذين لطالما صموا آذانهم وأغلقوا عليهم أبواب بيوتهم، بعد أن أغلقوا عيونهم وأفواههم، وفتحوا كل الغرف المغلقة لكوابيس الجنكويز..

قبلها كان جقندي مشبعا بالخيبة، وهو يحمل رسالة "الجنزير التقيل" التي لا يريد أحد سماعها.. كان يحملها كتهمة أو لعنة أزلية.. حملها وحده وقرر المغادرة إلى السهل الفسيح، في أطراف الوادي. لم يكن ثمة خيار أمامه سوى الرحيل، فمنذ تعرض الأهالي لكل ذاك القمع والتقتيل، الذي سبق وتلى مقتل "سوميت" أغلقت كل الأبواب بوجهه.

مضى دون أن يأبه للأهالي الذين جعلهم الخوف من بطش الجنكويز، يتراجعون عن فتح أبوابهم المغلقة كي تضئ النار المقدسة بيوتهم..

كانوا يخشون "شعلة المعرفة" وربما يتصورون"محقين" أنها قد تحرقهم وتحرق بيوتهم، كما فعلت ببيت الدود أبو حجل قبل عشرات السنوات..

كان الدود أبو حجل الجد الأكبر لأبي شوتال المغرّم بتقطيع الأوصال، عندما يخلد للنوم يظل يفكر في"قطع الشك" وما بين فخذيه ينتفخ، حتى ليكاد يتفجر مع تصاعد النبضات المتسارعة، في كل عروق جسمه، لكنه كان يجهل تماماً ما عليه القيام به.

بعد ذلك يغوص في نوم عميق، فتدهم قطع الشك أحلامه: يرى نفسه يحاول رؤيتها.. تخرج إليه متلفعة بشفق المغيب، تتبعثر الكلمات في فمه. تدهشه هالة الضوء التي تكلل رأسها، تنعكس على وجهه، تبدد قتامة المكان والعباءة السوداء، فيلوح جسدها خلف ستار رقيق شفاف يرى خلاله كل شيء، حتى الأرض الموحشة المقفرة، خلف دارها المتدثرة في صمت وعزلة الوادي، فلا يجد شيئاً ليقوله لها فينسحب، وعندما يفيق يجد نفسه مبتلاً بللاً غزيراً. منذها قرر سرقة شعلة المعرفة. ليهرب فيما بعد إلى السهول الواسعة.

هذه السهول التي يهرب إليها جقندي الآن، مختلياً بنفسه عندما تتناهشه الهموم.. حيث لا تصل إلى مسامعه في السهل الممتد الأصوات العالية للأطفال، وهم يلعبون "الشليل" على ضوء القمر، أو يركضون خلف "المرافعين" عندما تغطي سحابة هاربة، كتلك السحب التي أغتصبت قطع الشك في ظلمتها، بعيداً عن البدر المنير وحفيف سبيط النخل، أو أنين السواقي التي كانت لا تزال تجهش بالبكاء الحار، الذي يثير أشجان الأرض، ويشعل فيها اللهفة بكل ظمأ الجفاف والقحط الأزليين للحنان الدفاق.

أرض "الروح العظيمة" الواسعة، التي خلقها لِعِيَالِهِ الرُّحَلْ، الذين خلفوا الشايب جقندي وراءهم لعدة مواسم تلبية لرغبته في إيصال رسالة "الجنزير التقيل" إلى هذا العالم الكئيب والحزين حد الفوضى والجنون..

الروح العظيمة الآن غاضب جداً على عِيَالِهِ، غضباً أشد من غضبه في ذلك الوقت السحيق، إثر إغتصاب الدود لقطع الشك.

كان غاضباً من النزاعات حول أرض الذهب، وإنقسام الناس دون سبب. وكان جقندي لكل ذلك حزيناً جداً..

كان مرتاعاً ومروَعاً، يشعر بأن ثمّة كارثة تلوح في أفق الوادي الحزين، فقرر الرحيل لا يمنعه شئ سوى إنتظار عودة قومه الرُّحل، الذين كانوا وقتها يعبرون شوك القتاد، لا يأبهون لزفيف رياح الخماسين.. أو عجاج القبلي، ولا يتجنبون في مسيرهم مسارات الرَّعي، و"هبوب العِيْنَة" البعيدة، وهي تبشرهم بخرائف مثمرَّة، ومطر يغسل غباش الأرض.. والريح.. ريح "الهبباي" الرطبة التي تلسع الوجه والقفا..

لم يكن ثمة شيء بإمكانه إيقافهم.. يثنيهم أو يعوق مسيرهم: لا البرق "العبادي" ولا أعاصير الشيطان...
مضوا في رحلتهم الأبدية، من أقصى السافل إلى أقصى الصعيد، ومن أقصى الصعيد إلى أقصى دار الريح. وهاهم الآن في طريقهم إلى دارصباح، يغذّون المسير بإتجاه النّهر الذي لطالما عبروا إلى منبعه، وهم يحيوّن في طريقهم أسراب الأوز والعصافير البريئة..
هكذا يعاودون ترحالهم الأبدي، من أقصى دار صباح إلى أقصى دار الريح، حيث لا نهر يعومون فيه سوى تلك الوديان التي يغتسلون من "مشيشها وجمامها" كما تغتسل غزالات وادي الذهب والصبايا العذراوات...
يظلون يتغنون بـ "القش والسعية" وخرير "السباليق" في المدن القديمة المنسية، ببيوتها الواطئة التي يمرون بها في طريقهم. فلا يخلو غنائهم العذب الأسيان، من حزن مقيم على ضياع الوادي، الذي تجيء بأخباره المراسيل، التي تؤكد أنه يوشك على نهايته الفظيعة والمريعة...
وقتها كانت مسارات الرعي، والطرقات والدروب المؤدية إلى وادي الذهب، ملفوفة في الضباب الذي غلّف حتى الأبواب والشبابيك والأشجار، التي أمام البيوت. ووسم "وجويج" الطير و"قوقاي الحمام والقماري" بالألم، إذ تتسربه أغنية الدود وقطع الشك، في مناحة ملؤها الحزن والأسى واللوعة.. يتخللها طيف الجنزير التقيل، في كل شطر بكل عنفوان الجرح الأزلي، وهو يُودع حشرجاته الأخيرة:
روح ريح الخماسين الضّارِية، التي تسكن الوادي. في محاولاتها الدؤوبة للإنعتاق والإفلات، إلى طريق يفضي إلى بلاد أخرى لا تعرف الخوف، ولا تشوبها شوائب الماضي الحزين، وفي محاولة أخيرة لبعثرة أسرار ظلال الحاضر، الذي تراكم عليه غبار الجشع والجبن والأحقاد، لتذروه في الفراغ اللانهائي. مسقط رأسه الأول، حيث الرّحم اليابس كغيمة عقيمة، لا تمطر سوى "العجاج والكتاحة" وعصار الشيطان والبروق الكاذبة!..
لماذا هكذا هو وادي الذهب؟!
كلما رغبت ريح الخماسين في تحريره، زاد تجبراً وجحوداً ونكراناً.. كأنه لم يكن يوما تلك الفكرة الوادعة، التي كانت في خاطر "الروح العظيمة" يوما!
إذن إختلى جقندي بنفسه دون أن يأبه لتقلبات أمسيات الصيف القلقة، وهو يستعيد ذكرى خرابٍ قديم:
عندما رأى الجنكويزي الدود أبو حجل، الجميلة قطع الشك للمرّة الأولى.. عندما كانت تملأ "قِربتها" من الغدير..
لم يخطر على بال الدود قبلها أن"الروح العظيمة" من الممكن أن يخلق من هو أجمل منه، هو الذي لطالما أدمن تمعن صورة وجهه المنعكسة على سطح الماء، يتأمل جمال صورته ويتغنى بها، في القصائد التي يحملها العابرون إلى "مالحة" حيث وادي الملح في أقاصي دار الريح، لتعود عابرة حدود دنقلا العجوز وتمضي عبر حدود السافل، وتعود لتصعد مع النهر، تتخلل جبل "موية" متجهة إلى حيث الهضاب العالية، حيث أودع الخالق الجبال والكهوف أسرار الحياة..

لكن طيف عينا قطع الشك الفاتنتان، يقمع الآن إفتتانه بنفسه. يلوح على سطح النهر مموجاً وجهه، الذي يتبدد في الدوامات الصغيرة لعينيها. فيغضب الدود.

يحاول إقتلاع عيني قطع الشك من صفحة الماء، الذي ما أن تتبدد دواماته المتموجة، حتى تعاود مرة أخرى تبديد صورته، فيشتد غضبه أكثر فأكثر.. وقطع الشك مولودة الحمام، التي تأكل لبن الطير من مناقير الحمام، كانت لا تمضي في الظهيرات الغائظة إلى أي مكان، إلا والحمام يتقدمها ويحفها بأجنحته، من حر الصيف "القيطوني والعجاج وشكشاكة" المطر، ولا يفارقها إلا عندما تتسحب الشمس، خلف الأفق الغربي البعيد، لتلفظ آخر أنفاسها وتتهشم في مقبرة الأتون الأزلي.

عندما كمن لها الدود في المرة الأولى، عند إحدى منعرجات الوادي، ذات ظهيرة غائظة، سارع الحمام لإخفائها عن عيون الدود المنحرفة..

لم يكن الدود يرى سوى الحمام.. حاول إختراق أسرابه.. حملها الحمام على أجنحته وطار بها بعيداً.. بعيداً طار بها الحمام.. إلى قلب بندر الوادي المحاصر بالجبال والسهول، وقتها كانت قطع الشك "بِنَيّة" صغيرة لم تكتمل أنوثتها بعد، فظل الدود أبوحجل يخطط ويدبر، والأيام والشهور تمضي ببطء، كأن كل شيء في الوادي قد توقف، دون أن تلوح له بارقة أمل للإنفراد بقطع الشك، إلى أن كانت تلك الليلة المظلمة، عندما خرجت قطع الشك دون أن يتبعها الحمام الغارق في الوسن..

عندما تستعيد سوميت الآن حكاية جدتها حجب النور، التي هربت في ذلك الزمان البعيد مع أحد الرُّحَلْ، عندما كان الوادي وقتها خارجاً للتو من الجفاف والتصحر، الذي أهلك الزرع والضرع، ولم ينج فيه من الأهالي سوى القليلون، ممن تشبثوا في إستماتة بالحياة..

عندما تستعيد ذلك تترى على ذاكرتها صورة "حبوبتها" كاكا ووالدتها أم كوراك.. فتهيمن على خواطرها تلك العشّيات، التي كانت وأطفال الوادي يلتفون فيها حولهما لسماع الأحجيات..

كانت كاكا تتكئ علي عنقريبها في قلب "الحوش" فيما أم كوراك تجلس متحكرة على "البنبر" وحولهما الأطفال يفترشون "البرش" على الأرض، بعد أن تكون أم كوراك قد أوقدت النار بين "اللدايات" وهي تتشبث بعباءتها السوداء، التي لا تظهر منها سوى عينيها الواسعتين..

وتبدأ "حبوبتها" كاكا تحكي عن الرُّحل الذين تحن إليهم، وعن الوادي العذاب وعن والدتها حجب النور، ثم تبكي كأنها تتذكر حبيبا بعيداً.. لم تكن تحاول إخفاء دموعها أو تحاول مسحها بأصابعها المعروقة أبداً..

كانت سوميت فتاة مرحة وحيوية، قضت كل حياتها في الوادي. تعلمت من حياته القاسية الصبر، وأكتسبت مناعة ضد شقاوة الصبيان..

وكانت كاكا تضفر لها شعرها الأجعد في جدائل كبيرة تشبكها إلى الخلف. لم تكن تخشى طيلة حياتها سوى شيئا واحداً: أن يختطفها الجنكويز خفية، فلا يعرف مكانها أحد، فقد كانت فتيات كثيرات في مثل سنها قد إختفين بطريقة غامضة، دون أن يعثر لهن على أثر، فمن قائل أن الجنكويز هم من إختطفوهن، ومن قائل أنهن هربن يتبعن رجلاً من الرحل أحببنه، كما كانت جداتهن تفعلن.

كانت سوميت تختلف عن جدتها حجب النور، إختلافها عن قريناتها فيما يخص شأن القلب، إذ لم تحلم أبداً مثلهن بفارس يأتي على ظهر فرس أبيض، أو بعير من سلالة النوق العصافير، ليختطفها ويتنقل بها في مضارب الرُّحَلْ، من مكان إلى مكان.

ولم يخطر على بالها أبداً أن تحط رحالها مع حبيب يقذف إليها برسن بعيره، لتربطه في شباكها العالي، وتتدلى إلى ظهر البعير، الذي يخب بهما الصحارى والوديان، إلى أن يصلا إلى شاطئ البحر الكبير، فيركبا مركباً أو "طوف" أحد الصيادين ويبحران عميقا، حيث جزيرة نائية. يعيشان فيها وحدهما لا تؤانسهما سوى كائنات البر والماء والطير..

لم تكن تحلم مثل هذه الأحلام أبداً. ولذلك لم يكن لديها تصوراً محدداً لفارس حياتها، الذي لم تفكر فيه على الإطلاق.. فقد كان كل تفكيرها منشغلاً بهذا البؤس، الذي ينضح في وجوه أهالي الوادي..

كان المشردون الذين أصبح جقندي وسوميت وست البنات وعاشميق يرعونهم، لا يقيمون في مكان واحد، فعاشميق الذي كان قد تجاوز سن المراهقة، وبإعتباره أكبر المشردون سناً، كان يقيم وحده في طلل لبقايا دار قديمة، قرب "كِترايا أم مواكح" التي توسطت "قوز المطيرق" بإتجاه الطرف الغربي لبندر الوادي.

بينما ست البنات المراهقة الصغيرة أقامت مع سوميت، وأقام أقرانها وقريناتها من الأطفال المشردين والمشردات، في مكانين متجاورين: "حفاير المطاليق وأرض المطمورة" قريبا من المدخل الجنوبي لبندر الوادي، حيث تنهض شجرة "التومات العجوز"..

في ذلك المساء البعيد وبعد أن أنهى المشردون بناء دارهم الكبيرة، التي سيعيشون فيها لأول مرة جميعاً كأسرة واحدة، أشعل إكتمال بناءها خواطر عاشميق الدافئة، التي انطلق عنانها لا يلوي على شئ، وهو يرسم صورة زاهية لحياته المقبلة مع ست البنات، التي تدنف بها عشقاً.. فأخذ يتخيل ذلك اليوم الذي سيحصد فيه حواشته الكبيرة –التي لم يمتلكها بعد– والتي تتجاوز مساحتها الألف عود..

ويتزوج من ست البنات نوارة مشردات بندر الوادي.. التي يراها الآن تجلس على "البرش" وإخوتها المشردون "يكجرون" لها "الفركة" بعد أن يزوجه جقندي إياها ويسيرهما المشردون إلى النيل، ليغتسلان إتقاءً لشر قطع الشك، التي تسكن قاعه، ليدخلان بعد "السيرة" إلى دارهما.. وقبل أن يخطوان بقدميهما اليمنتين على باب دارهما، يلطخ المشردون بابها وجدرانها، بأكفهم التي غمسوها في دم الذبائح..

دارهما وحدهما التي سيملآنها بالأطفال.. أطفال يأخذونهم إلى النهر في "السبوع" بعدها يعرجان على جقندي لينالا بركته..

قال لست البنات ذات مرة:

"سأشتري لك أرضا كبيرة، أكبر من "سهلة أم بطيخ ووادي الكليوة أم قجة".. نزرعها معاً، وسأبني لك فيها داراً كبيرة.. أكبر من "جنقل" السلطان، يأوي إليها أطفالنا الذين سندفن كل "سررهم" في قلب الدار حتى لا يفارقوننا أبدا.. وبالطبع لن نختن البنات.. سنتركهن غلف، فهذا أفضل لهن.. وعندما أجيء متعباً من الزرع، أجدك قد أنهيت طحن الذرة في "المرحاكة" وما أن تريني حتى تبدأين في "الشكوية" اليومية المعتادة:

"حطب النار كمل.. وجع الضهر.. العواسة.."..

وكانت ست البنات تضحك بخجل طفولي.

كان عاشميق على الرغم من أنه للوهلة الأولى يبدو "كمطرطش" إلا أنه كان ذكياً واسع الأحلام والخيال.. ومع ذلك لم يكن يخطر على باله أبداً ما تخبئه لهما الأيام..

ومثلما كانت قطع الشك هي إبنة الحمام، كان الدود هو إبن دماء العذراوات، فقد كان والده "بادي" الشقيق الأكبر للسلطان جبل الحديد جنكويزياً غريب الأطوار، إذ كان يتغذى على دماء العذراوات، ويحوّل ما تبقى من دمائهن إلى سبائك ذهب.

بينما كان متوجهاً إلى داره عند أطراف حاضرة الوادي، في إحدى الأمسيات، عائداً من إحدى سفراته إلى دار الريح، رأى "البنية" الجميلة "ست الدار"وهي تحمل حزمة حطب..

كانت في البدء تمشي بتكاسل تغذيه رغبتها في الإستمتاع بنسائم ذلك الصيف الحميم، الذي أشعل في خواطرها منذ مقدمه، أغنيات الحب الهامسة بلمسات تتخيلها، تتشكل أمامها كطيف.. تحاول الإمساك بها فتتبدد في فراغ الوادي..

كانت "البنية" ست الدار في أوج مراهقتها، التي يقلقها حتى مجرد خرير الجدول، أو حفيف الأشجار، أو ذلك اللحن الموحد، الذي تعزفه طيور الوادي، فيجعل كل التكورات البارزة في جسمها تنتفض بشدة..

حاولت الإسراع في الخطى وسماء الوادي تتلبد بالغيوم على حين غرّة. كانت السماء على وشك الإمطار.

سقطت منها حزمة الحطب. إنحنت لترفعها، لكن كانت يد "بادي" أسرع..

هكذا انتصب أمامها فجأة على نحو مباغت، دون أن تشعر بخطواته التي كانت تتبعها، وكانا قريبين من داره المحاطة بالأسوارالعالية. فدعاها للإحتماء بداره، على أن يأخذها إلى دارها بعد أن يتوقف المطر عن الهطول.

تمنعت في البدء، ثم وافقت بعد تردد ليس قصير، مدفوعة بأحاسيس غامضة. وعندما توقف المطر، أرادت أن تغادر، فرفض السماح لها.. منعها من الخروج وحبسها بين جدران داره الحصينة. فأدركت أنها تورطت.

كان شعورها مزيجاً من الخوف والهلع والحزن، حاول تهدئة خواطرها لأيام وأسابيع، إلى أن تمكن منها اليأس فلاذت بالصمت، وأصبحت فقط تنفذ رغباته دون إحتجاج.. دون إستنكار.. دون كلام.. بصمتٍ تام. إلى أن شعرت بأعراض الحمل، الأمر الذي أسعده كثيراً وشجعها على التخطيط للهرب.

عندما أصاب الوادي القحط والجفاف، لجأ الأهالي إلى السلطان جبل الحديد، الذي حولهم بدوره إلى بادي شقيقه الأكبر ورئيس مجلسه السلطاني، الذي كان وقتها قد تقدم للزواج من بنت وراق جدة ودالتويم في الحسبة، التي كان والدها التويم الأكبر (سراج البيت) ذا حظوة عند السلطان، فرفضت بنت وراق الزواج من بادي لما كان يحيط بحياته من غموض وشائعات، فوجدها فرصة مواتية للحصول على بنت وراق أو قتلها، فأخبر الأهالي أن هذا الأمر لن يفتي فيه سوى "معراقبي" دار الريح!

وبالفعل جلب بعض جنكويزه هناك، والذين كانوا قد تنكروا بهيئة المعراقيين، فأخبروا السلطان والأهالي أن المطر لن يهطل والنهر لن يفيض، مالم يعطى النهر قربانا: أجمل فتيات الوادي اللائي يتوجب أن تكون من علية القوم وأشرافهم.. وكانت هذه المواصفات تنطبق على البِنَيَة بنت وراق صديقة العصافير والحراز..

بعد تردد وافق الجميع على هذه الفتوى. وقتها كان بادي قد تمكن من لقاء بنت وراق فجدد عرضه لها بالقبول به زوجاً كي يتمكن من إنقاذها، لكنها فضلت أن تقدم قرباناً للنّهر على الزواج منه.

وفي اليوم الذي سيروها فيه إلى النّهر ليبتلعها في أعماقه السحيقة.. أمطرت السماء مطراً مالحا كالدمع، وفاض النيل بطميٍّ أحمر قان كالدم وخرجت حورياته يبكين في حزن شديد!.. ويبست أشجار الحراز المخضرَّة يباساً شديداً..

وكانت دموع بنت وراق التي زرفتها على الشاطيء قبل أن يبتلعها الموج في أحضانه، قد أنبتت زهوراً بيضاء أكثر بياضاً من الحليب.

وكان بادي مكسور الخاطر.. حزيناً وغاضباً. إمتلأت دواخله بالحقد والشرور، فأخذ يختطف عذراوات الوادي في خفية من أهلهن ويحبسهن في قصره الذي لا يستطيع أحد الإقتراب منه..

عرف بادي في حياته نساء وفتيات كثيرات، لكن لم تمنحه أيا منهن الولد، الذي يمكن أن يعينه في مؤامراته ضد أخيه الأصغر السلطان جبل الحديد، الذي انفرد بسلطة أبيهما وحده دون شريك.

كان بادي من النوع الذي لا يقبل هامش أو فتات السلطة، التي يجود بها أخيه عليه. كان يريد السلطة كلها.. وهكذا تبدلت ست الدار قليلاً، فهي من ستمنحه أخيراً الولد الذي يحلم به.

هجرت الصمت وأخذت تحاول نيل ثقته. بدت له كأنها قبلت بحالها وأستكانت، وكأن ما يجري لها هو "قدر مكتوب!" يجب القبول به!.

وكان هو قد إنشغل بحملها، الذي كرس له كل وقته، متناسيا مشاغله الأخرى، إلى أن دهمه ذات فجر شاحب متلفع بغسق صحراء دار الريح المغموسة في عجاج القبلي الساخن "مرسال" من مطاليقه، الذين كان قد أهملهم في غمرَّة إنشغاله بحمل ست الدار.

أسر له المرسال بكثير من التطورات وسط الجنكويز، الذين كان يعتني بهم منتظراً اللحظة المناسبة للإنقضاض على الوادي، والإستيلاء على السلطة.

وهكذا ترك "المرسال" للإعتناء بها في غيابه و قرر المضي إلى دار الريح، حيث جنكويزه، الذين لأول مرَّة يغيب عنهم كل هذه المدة.

أعطى بادي لست الدار مفاتيح الغرف جميعها، وأبقى مفاتيح بوابات الدار الحصينة معه، وأوصاها أنها حُرَّة في أن تفعل ما تشاء، عدا شيء واحد.. هو الدخول إلى غرفته المغلقة!..

وقتها كانت ست الدار في آخريات أيام حملها بالدود أبو حجل. وهكذا في غياب بادي ولد الدود أبو حجل، الذي لم يحصل مثل أقرانه المواليد على "مضغة البلح" من فم "شياب" الوادي الصالحين لينشأ حسن الأخلاق، ولم يأخذه أبويه إلى النهر في "السبوع" كما ولم ترسم له ست الدار علامة "الأيقونة" على جبينه بـ"الكحل" لتحميه من الشرور، وكما لم تجد هي نفسها من يأخذها إلى النّهر في "أربعين النفاس" للتطهر ملوحة بجريد النخل..

حدثتها نفسها ذات يوم أن تفتح باب تلك الغرفة، التي حظرها عليها بادي، لترى ما بداخلها.. وفي خفية من المرسال ذات ليلة مزقت عذريتها صياح الديكة على غير العادة، فتحت الغرفة.. و...

وتسمرت قدماها على عتبة الباب لهول ما رأت.. كانت جثث لفتيات علقن من أياديهن إلى سقف الغرفة، والدماء التي سالت منهن، حملتها مجاري رفيعة إلى أوعية كبيرة إرتبطت بدورها بشبكة من المواسير الحجرية الرفيعة، التي تؤدي إلى إناء فخاري في فرن صغير، شيد ملتصقا بجدار الغرفة، تناثرت على سطحه سبائك الذهب!...

صرخت ست الدار صرخة مروعة، إنتزعت المرسال من أعماق كوابيسه المرعبة!..

في ذلك الفجر كان قلب بادي قد إنقبض على نحو مباغت، فترك جنكويزه في الحليلة شوحططت، ومضى يغذ المسير نحو الوادي، وعندما وصل أخبره المرسال بكل شيء. فدخل على ست الدار غرفتها.

أخذ الدود من حضنها وأعطاه للمرسال، الذي كان يقف بخنوع عند عتبة الغرفة، منتظراً أوامر سيده.

أخرج بادي شوتاله من جفيره وهوَى على ثمرة فؤاد ست الدار بطعنة واحدة.

فعل كل ذلك في هدوء تام وبدم بارد، كأنه لا يفعل شيئا. صاحت فيه ست الدار في نزعها الأخير:

"تكتلني يا عبد السافل.. أكال الضبابة.. يوم كتال السافل ما إتغتيت بشملة أمك، وإتدسيت تحت السدرات، وهربت لي دار الريح"..

صرصر بادي سنونه وطالت أنفه وأذنيه وأخذ "يقنِت".. فأردفت بصوت واهن متحشرج:
"سويتها فيني يا أبوسيقان.. يا قراش سنونك.. يا أبو ركبين"
فعاجلها بطعنة أخرى في القلب تماماً، فصمتت إلى الأبد..
وبعد أن هدأ قليلاً، مسح من شوتاله دمها على جلبابها، وأعاد الشوتال إلى الجفير. ثم أخذ الدود بين زراعيه وأخذ يقبله بلهفة.
هذه الحياة المأساوية، ربما هي ما جعلت الدود بهذه القسوة، التي لا مثيل لها. إذ كان لا يرى سوى نفسه، ولا يرغب في أن يكون هناك على وجه الأرض، من يفوقه جمالاً، حتى لو كان أنثى. خصوصاً أنه لم يكن يتوقع أن يتعرض للرفض من أي كانت. ولذا أزعجته سيرة قطع الشك التي سار بصيتها الركبان، فوصلت أركان القبل الأربعة.
فقد كان الجميع مفتونون بجمالها الذي لم يروه. جمالها الملائكي الساحر الذي تشي به عيناها الدعجاوتين. فقد كان جسمها دائما مكسواً بعباءة فضفاضة، لا تظهر منه سوى تلكما العينان الساحرتين. الواسعتان كبحيرتين صافيتين. هاتان العينان ألهمتا الشعراء، وأطلقتا في أخيلتهم ملايين الطيوف الساحرة، التي تغني أعذب الكلمات وأصدقها في الحب والجمال..
وبالقدر نفسه أشعلتا في الدود نيراناً لا أول لها ولا آخر، كنيران التنين الذي أرسله "الروح العظيمة" فيما بعد لدمار عالم الوادي، موغل البؤس والوحشة والعذاب..
لم يستطع الدود مقاومة رغبته العارمة، في رؤية صاحبة هاتين العينين، فكمن لها للمرَّة الثانية في ذلك المساء الذي ألقى بظلاله مبكراً. هجم عليها ومطاليقه الجنكويز.
لحظتها كان الأهالي قد تقاطروا على الجنزير التقيل، ليتوسل لهم "الروح العظيمة" كي ينزل المطر. فالجفاف كان يهدد حياتهم وحياة أبقارهم، ويستعيد إلى ذاكرتهم "سنة النيل اَللَّمّ الناس من نجعة أم لحم" عندما أنفض الأهالي من حوله ودخل داره، أخذته سنة من النوم، إنتقلت خلالها روحه إلى السماء البعيدة، حيث وجد المطر محتجزاً خلف سد جليدي ضخم، وفجأة ظهرت أمامه قطع الشك تتبعها حماماتها، التي تقدمت نحو السد الجليدي، تنقره برفق إلى أن أحدثت فيه ثقباً، أخذ شيئاً فشيئاً يتسع إلى أن إنهار السد تماما. وتدفقت المياه.
لحظتها أفاق الجنزير من غفوته على وقع حبات المطر، التي تتساقط في الخارج، فنهض وخرج إلى قلب الساحة التي تتوسط الوادي، فوجد الأهالي يرقصون "الكمبلا" تحت المطر، وعلى رؤوسهم قرون الثيران الذبيحة.
كان إحساسا خفياً يهيمن عليه ويقلقه.. شعور غامض بأنها بداية النهاية للوادي، كان يتحكم فيه.. ومنذ حلقت روح قطع الشك إلى السماوات البعيدة، أصبح الدود كالمجذوب. هائماً في البرِّية يتغنى بجمالها الفريد، وظلت روح قطع الشك الهائمة تعترض طريقه، وطريق الجنكويز والسابلة، لتزيد جنونهم وجنون العالم جنون، إلى أن إنتشر غمام كثيف في

إحدى الليالي المظلمة، التي تشبعت "بعجاج الهبباي" وهدر الرعد وأخذ البرق العبادي يحاول في إستماتة، تبديد الظلمة الكثيفة بين آن وآخر!

ليلتها هطل مطر كثيف "حزم البيوت" وهدمها، وبعد أن توقف "فجّ" طيف قطع الشك السماء ونزل.

كانت قطع الشك حبلى، فولدت طفلاً جميلاً. وضعته على مهد من جريد النخل، وأخبرت الجميع أنه يحمل رسالة يريد أن يبلغها لهم، فالتفوا حوله تتآكلهم الدهشة البالغة!..

كانت رسالة إبن قطع الشك، هي الرسالة نفسها التي لطالما حدثهم عنها الجنزير التقيل، الذي ما أن صمت الطفل، حتى لملم أطراف جلبابه ومضى بإتجاه داره. أخذ عياله وأقاربه ومضى إلى جبل كارناسي، مخلفاً وراءه وادي الذهب.

وقتها كان الأهالي المتحلقين حول قطع الشك، قد غابوا في سجدة طويلة، لم يرفعوا عنها إلا بعد وقت طويل.

١٢

الأهالي الذين لم تفارق الدهشة وجوههم منذها، لم يذبحوا الثيران البيضاء ليقدموها قرابيناً للفقراء والمشردين، كما أوصاهم طفل قطع الشك.. لم يضعوا قرون الثيران على رؤوسهم ليغنوا ويرقصوا (الكمبلا) كما أعتادوا في المناسبات الخارقة، ليبلغ صوت غنائهم وضربات أقدامهم على الأرض، عنان السماء البعيدة، ولم يغرسوا قرون الثيران على أبواب بيوتهم لطرد الأرواح الشريرة!

فقد كان الجنكويز قد إنتشروا بينهم مكذبين كل شئ، ملوحين بالويل والثبور وعظائم الأمور. كان شعور الأهالي إذن مزيج من الدهشة، التي زرعها الطفل في عيونهم، والخوف والرعب الذي زرعه الجنكويز في قلوبهم.

وعلى الرغم من أن الجنكويز أمروهم بإخلاء المكان، لم يفعلو فقد كانت أقدامهم وأقدام الجنكويز، قدتسمرت على الأرض لساعات طويلة، كان المطر خلالها يتوقف ليهطل مرة أخرى..

توقف المطر تماماً وظهر البدر منيراً لوهلة بكامل بهاءه وجماله.. ناشراً ضوءه على الوادي شديد الحزن واللوعة، ثم لم يلبث أن غاب في ثقب أسود لاح في قبة السماء، وأخذ يدنو منه في سرعة خاطفة.

أخذ القمر يتضاءل شيئا فشيئا، إلى أن أطبق عليه الثقب وغاب تماماً..

وقتها كان الدود قد تمكن من إنتزاع قدميه، فأخذ يركض هائماً تجاه البرّية يتبعه الجنكويز. كان قد إنجذب تماماً. فأخذ يركض بسرعة خرافية، فلم يتمكن أحد من الجنكويز من اللحاق به..

ركض وركض حتى توغل في مجاهيل دار الريح، ولم يتوقف إلا بعد أن نال منه الأعياء والتعب، والإحساس الشديد بالجوع والعطش.

لمح شجيرة قضيم بيضاء كاللبن، فأراد أن يقطف من ثمارها ما يتقوت به. أخذ يلتهم ثمار القضيم الأبيض إلتهام من لم يذق طعاماً لسنوات طويلة.

وكان يتمتم بين الفينّة والأخرى، بكلام غير مفهوم حول قطع الشك، كأنه يخاطب طيفاً لها يختفي ويبين.. طيفاً لا يراه أحد سواه.. إلى أن غاب في غيبوبة طويلة قرب شجيرة القضيم الأبيض، في اللحظة ذاتها كانت العنقاء تحلق فوقه..

كانت العنقاء، كأن السماء إنشقت عنها ورمت بها تجاهه لتنهشه نهشاً.. إنقضت عليه.. سالت دماءه تحت شجرة القضيم، تروي عروقها الظمأى فأخذت ثمار القضيم تتحول شيئا فشيئا إلى اللون الأحمر!..

وهناك في اللحظة ذاتها، حيث الأهالي الملتفين حول قطع الشك وطفلها، اللذان بدأا يرتفعان ويسبحان في بحر الهواء، إلى أن إختفيا تماما عن أنظار الأهالي، ليطلان على جبل كارناسي، الذي فرغت فيه العنقاء لتوها، من تعليق جثة الدود عارياً، وأخذت تنهش كبده، الذي كانت ما أن تفرغ من إلتهامه، حتى يخلق له "الروح العظيمة" كبد آخر.. حتى يدوم عذابه مع معاودتها النهش.. وهو يصرخ صرخات أليمة، فزعة ترتج لها أركان الوادي، بل إخترقت حتى جدران جبل كارناسي، الذي إختبأ فيه لحظتها الجنزير التقيل وأهله مع الأطفال المشردين وبعض الأهالي.

بعدها كانت مخلوقات "الروح العظيمة": التنين والخرتيت في طريقهما إلى الوادي، يلحقان بالعنقاء التي كانت ما أن تنهي نهش أحد أكباد الدود المتجددة، حتى تمضي لتنهش الأهالي.. الذين كانوا يحاولون الهرب من طعنات الخرتيت..

كان الأهالي بين قتيل ومحتضر عندما نفث التنين من أحشاءه الفسفور، ثم تبعه بغاز الميثان.. فاشتعلت النيران في كل أنحاء وادي الذهب...

وقتها كان الأهالي الناجين والمشردين، متقرفصين حول الجنزير في معبد كهف جبل كارناسي المقدس، والخوف يلتهمهم إلتهاما. كانوا يدركون أن العالم، الذي لطالما ألفوه يحترق في هذه اللحظة بالذات!

القسم الثاني

النهايات الوشيكة

إذا هزنا الشوق اضطربنا لهزّه
على شعب الرُّحل اضطراد الأراقم
فمن صبوات تستقيم بمائل
ومن أريحيات تهب بنائم
الخفاجي

١

على قيف الشاطئ الوحيد، المتوحد في عزلته المجيدة، كان "جقندي" لا يزال مستلق يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، كأنه يقضي ما تبقى من حياته بتقليب نفسه على جمر الذكرى الحارق.
وعندما يلامس طشاش ماء النّهر جسمه النحيل، يرتجف لبرهة تكفي لإستعادة حياته مع "سوميت" والمشردين وجلساتهم في الكهف السِّرِّي لجبل "كارناسي" المهيب، فتتخلل خياشيمه المجهدة رائحة "سوميت" الدافئة، وهي تجلس على ركبتيها في قلب الكهف تشعل ناراً صغيرَّة.
الآن فقط ينتبه لرائحتها ودفئها.. علمها الكثير من الأشياء.. حدثها عن "العوالم (العصور) السبعة".. الدمار الأول.. و"كارناسي" الشاب العاشق اليانع الجميل، الذي قتله "الخازوق" بسم أبو الدرق القاتل، فانتقلت روحه لتسكن الجبل وتحمل إسمه..

عرفت منه حدود النهر، ومن أين ينبع، ولماذا القبلي بهذه القسوّة والجبروت.. يلسع وجوه الناس وأقفيتهم، بذرات التراب الساخنة!.. وكم هي سموم نيران الغيرَّة، التي نهشت وجدان "الخازوق"!..

وكان وجهها يستحيل إلى شديد السمرَّة، كالأرض القردود، فينتبه للمرَّة الأولى أيضا لتلك الوردة الحمراء المرشوقة بأناقة، في جديلة شعرها الكبيرَّة.

تحدثا عن الأزهار والورود السامة، التي يستخرج منها صيادي دار الريح السُّم..

"يعالجونه بطريقة معينة، ويغمسون فيه رأس الكوكاب أو النشاب أو الحربة"

"لكن عندما يصطادون فريسة ألا يكون لحمها مسموما؟!"

"النار.. النار تعالج كل شيء"

كانت تعيد على مسامعه كل ما يقوله، كأنها تقرأ أمامها على لوح محفوظ!..

وجقندي الذي تتأرجح أفكاره الآن، منحدرَّة من ينابيع التاريخ العكرّة، دون وعي يطهره النسيان، يتذكر أدق تفاصيل حياتهم المشتركة.. فتتأرجح هي الأخرى على مهل! فيبدو كل شيءٍ حوله مهتزاً:

الشجيرات على الضفة الأخرى من النَّهر.. المراكب الراسية على القيف.. نباتات عُشبَة معونّة النيل الكسولة.. عصفور "ودأبرق" وعشيقاته "المشاطات وقدوم صفيرة" وكل زرازير وزرزورات الحيشان الغارِقة في إهتزازات الصّمت!..

حتى ضوء الشمس الكابي؛ في آخر منعطفات الأفق خلف كارناسي، وهو يتسحب خلف غمامة عابرة، مهتزَّة، سرعان ما ستتبدد وتفنى هي الأخرى.. وإلى الأبد، عندما ينفتق رتق السماء إلى قسمين، ويبدأ المطر في الهطول بغزارَّة...

كان المطر يشتد أكثر.. يشتد شيئاً فشيئاً...

ترك جقندي الجميع وخرج من الكهف وحده.. تأمل بندر الوادي المحترق في أسىً عميق.. تأمل الغيوم الكثيفة خلف خيوط المطر المنهمر. التي بدت كستار كثيف.. غطى الماء كاحليه.. شرب من ماء المطر حتى ارتوى.. خلع جلبابه.. ترك المطر يغسل جسمه العارِي.. وصل الماء ركبتيه.. شعر بجدر الدور المحترقة تتهدم مع صواعق "البرق العبادي".. أخذ يتنفس بإنتظام وقلبه مفتوح على المطر.. غطى الماء صدره.. تهدّم قصر السلطان.. تهدَّمت كل بيوت الوادي.. وبدأت الأشجار المهددة بالاقتلاع من الجذور تهتز بشدَّة..

أخذت أصوات الأهالي المرتاعين، تختلط بأصوات بهائمهم، وهدير السيل المنحدر من أعلا "جبل كارناسي" وتمتزج في أصوات الطيور الهاربة من الأشجار، التي أخذت تتلاعب بها الرِّيح..

طارَّت بعيداً حاملة معها حفيف أوراق الشجر.. ندى الفجر.. وشمس صباحات الوادي الباكرة ورائحة النباتات البرِّية وحتى الدعاش والغيمات العابرة، ورائحة الجروح المعطرَّة بالمخاوف والأسى الأبدي!...

لملمت كل شيء وأطلقته في صرخة واحدة، إخترقت حجب الفضاء البعيد، لتلامس كرسي الروح العظيمة وهو مستوٍ في مهابة، يراقب أحوال "عياله الضالين والمغضوب عليهم"..

توحدت الصرخة في صرخات الأهالي الحادة كصرخة طفل لحظة الولادة.. طفَّت الأشجار التي اقتلعها المطر والسيل من جذورها، وأصبح الوادي كله طافيا في الطوفان.. أصبح امتداداً للنهر والبحر الملوَّن..

غطى الماء عنق جقندي.. رأسه.. ومن أعماق النهر سبحت قطع الشك. وضعته على ظهرها، وسبحت به بعيداً إلى مدن لا يهددها الفناء...

كيف بدأت الحكاية؟

كان جقندي قد جمع عدداً من الأهالي بمساعدة من تبقوا أحياء من المشردين، ومضى قاصداً بهم المخابئ السرِّية أعلا كارناسي. اكتظت كهوف كارناسي بالأهالي والمشردين الذين تبعوه، ولاذ الجميع بالصمت المطبق.

وضع الشايب جقندي الصندوق الأبنوسي الموروث من جده الجنزير التقيل على الأرض.. وضع "قربة المرّيسة" من على كتفه.. وتمدد على الأرض القردود. أغمض عينيه وحاول إسترداد لهاثه من الهواء، الذي أخذ يتموج أمامه. كان متعباً ومنهكاً لأقصى حد.

تحسس بنظره أرجاء الكهف المكتظ.. تتراءى له الآن بوضوح كل الأقنعة، التي تغلف الوادي وهي تسقط واحدة تلو الأخرى، فيجرح سقوطها الصَّمت الحزين...

لعشرات السنوات ظل الوادي "متقنعا". يعيش خلف هذه الأقنعة مخاوفه الخاصة. هواجسه وظنُّونه ورعبه المزمن.

كانت كل ظلال القتلى والمغتصبات والمغدورين، تخرج من سراب الحياة: لاهثةً ظمأى يحرقها جمر انتظار القصاص.

ثنى جقندي ركبتيه شعر بها منملة، مخدرَّة. فردها. ثناها.. فردها.. وأتكأ على مرفقه الأيسر، وهو يتناول من ود التويم الإزميل.. ومضت يده اليمنى تحفر في جدار الكهف، يحاول تدوين آخر الوقائع والأحداث ونبوءات النهايات الوشيكة، فيما ود التويم يحاول فتح كوة في جدار الكهف، لربطه بسلسلة الكهوف الأخرى أعلا جبل كارناسي..

إستوى جقندي على الأرض القردود، محاصراً بالصمت الذي تمدد ليلف كل شيء داخل شرنقته الكئيبة. الصمت الذي كان يتبدد بصورة متقطعة تحت ضربات الازميل على الجدار الصلد.

كان جقندي يسعى جاهداً في فتح ثُغرَّة في ذاكرة الوادي.. الأهالي.. المطاليق.. الشجر.. الطَّير والمطر وريح القبلي. بدى له لحظتها أن كل شيء يفكر على النحو نفسه، الفرق فقط -ربما- في إختلاف الشَّكل، لكن جوهر أفكارهم كان واحداً.

حاول ترتيب ذاكرته، وجاحداً نعمة النسيان مضى أقصى تلافيف الوعي، حيث تكمن التفاصيل الخفيَّة، منزوية بعيداً بقلق شقي في قاع الذاكرة، تراوغ الأسئلة السِّرية المسكوت عنها وغير المفكر فيها..

الأسئلة التي يطرحها الإزميل بضرباته المنتظمة، التي تشتد حينا وتنطفئ حينا آخر، مدفونةً في الصَّمت، مفسحةً للرَّماد والغبار الذي يخلفه الطرق دائرة غير مرئية، يقتفي في تؤدة أثرها الحراري!

توقف عن الطرق عندما تناهى إلى سمعه صوت "أم كيكي" من بعيد، يعزف مزيجاً من أغنيات عن "طير الرَّهو" والعنقاء وسواقي الوادي والعصافير المهاجرة، من بلدات بعيدة إلى بنادر لا تعرف الشمس.. فقط العتمَة ما يغلفها، كرَحمٍ كبير يضم جنّين غير مكتمل النمو.. لفظ أنفاسه في منتصف المسافة..

جقندي الآن يواجه سؤال عزلته الداخلية، ليكتشف في عزلة الوادي العامة آخيراً أن ليس ثمة ما يميزه –كما ظل يعتقد دوماً– ليستحق عليه الإحتفاء، فغّفىٰ كالميتِ لتخترق أحلامه جُدُر العزلة.. قشرَة الصَّمت الذي لم ينجح الإزميل في ثقبه...

"ليس ثمّة شئ خلف الجدار سوى المتاهة"

قال ود التويم.

تملى جقندي وجهه، وخياله يبحر في متاهة الوادي.. الشجر.. الطير.. الأهالي وريح القبلي السموم شقيق الصحراء.. ريح القبلي التي تجري في عروقه مجرى الدَّم.. صوت "أم كيكي" التي تتلوى على ذراع راعٍ متعب موبوء بالحنين، يملأ فراغات الحُلم، فتتردد أصداؤه بين جدران الكهف، دفقة من بوح كارناسي الشاب العاشق لحبيبته "القندول"..

دفقة من بوح سوميت.. بوح قطع الشك وكل العشاق والعاشقات الذين تمر ظلالهم الآن لتتخلل كل شئ:

الأزاميل.. الجدار.. عُشبَة معونة النّيل وهي تتهادى على سطح الماء المعكر بالطمّي ونباتات المستنقعات المتطفلة.. معزوفات أم كيكي المدفونة في رمل الوادي وجذور القمبيل، تخرج جميعها إلى السطح..

تبحر في النَّهر. تنادي صيادين السمك والمراكبية المسطولين عند الفجر. تتهادى على الماء كمراكبهم وتستسلم لأحضان عاشقها الموج، وهو يقذف بعشبَةِ المعونة بعيداً إلى رمل الشاطيء، ليختفي خلفها عاشميق وست البنات إلى الأبد!

وتنقذف العشبة بعيداً على رمل الشاطئ، تعيدها أنغام "أم كيكي" إلى مستقرها الأخير:

الرّحم الذي خرجت منه لتسمد الأرض، وتنمو في ثمار القمبيل، وتعطي "القضيم" لونه الأحمر القان.. لون قلب كارناسي النازِف.. تنكسر "أم كيكي" على ذراع الراعي، إثر ضرباته القوّية على الوتر، وتتفجر كفقاعات تنتشر في الفضاء الفسيح، يستنشقه الأهالي المحاصرين بالمياه في الكهف أعلا كارناسي، فيستبد بهم الحنين والشجن، ويظل الجدار صلداً دون كوّة.. دون ثُغرَة.. دون تاريخ.. دون ذاكرة...

على إيقاعات "أم كيكي الحزينة" أثث "بندر الوادي" حضوره الطاغ في وادي الذهب.. في البلاد الكبيرة.. وعلى إيقاعاتها إستقبل الدمار الأول.. و.. والثالث وهاهو يشرع الآن نافذة أخرى لدمار وشيك، دون أن تعلن "أم كيكي" عن أسرار الخراب الدائري المستمر كحلقة شريرة، في مجرى الزمن، تنطوي على كوابيس الوادي المرعبة...

إذن عندما صعد المشردون والأهالي خلف جقندي قمة كارناسي، كان كل شيء في الوادي بائس. رَّث. ينطوي على كوابيسه الذاتية المرعبة، فقد فقد كل شيء طراوته ونداوته على نحوٍ مباغت، وأصبح فزعاً من أن تبعث الحياة في هذا الفضاء الكئيب.. أن يتخلق من جديد وتنمو فيه وتعيش أوبئة الكوليرا، الملاريا، والجدري...

وضع جقندي الإزميل على الأرض الصخرية. فتح الصندوق الأبنوسي العتيق. سحب مخطوطاً من جلد الماعز تم حفظه منذ عشرات السنوات بطريقة مجهولة، وأخذ يقرأ الرموز التي خطت عليه..

ثمَّة شئ مفزع يصعب تصوره.. تآكل تام يجعل كل الموانع في ذاكرته تتهاوى، كطوابي النَّهر القديمة.. يهيمن عليه يقين بأن كل ما كان يوما هيناً قريباً يصبح الآن صعباً بعيد المنال..

كانت الحقائق تهرب من بين الرموز، مفسحة لعشرات الأساطير الصغيرَّة والكبيرَّة في عالم ينمحي من الوجود.. فينمحي من الوادي الذي لم يكن يوماً مهيئاً كفاية، كبندر للبلاد الكبيرَّة.

ولذلك بدأ سلاطينه على الدوام، كالذين يسرقون البكارات خلسة من الفتيات المسكونات بالطفولة والخوف والخيبات.. يسرقون حتى دمعات اليتامى ويحاصرون الوادي بجبروت الصَّمت والعزلة والحروبات الخفيّة والمعلنة، التي لا تنتهي سوى بالخسارات العظيمة.

منذ أصبح الوادي وطناً "للجنكويز" شُذاذ الآفاق ومعتقلات الكهوف والمنبوذين.. منذها يهرب من مواجهة ذاته بسوآتها، فغرِّق النَّاس في الخوف من الكلام.. الخوف من القول والصراخ بصوت جهير وعنيد ضد المظالم.. ضد إنسداد الأفق وانهيار الأحلام.. ضد الحماقات والجرائم في دار الريح...

منذها والوادي يستحيل شيئاً فشيئاً إلى مكان موحش، مبتذل وكئيب تتعطل فيه المواهب الطبيعية والحواس.. مكان لا يصلح سوى للنحيب، فقد امتلأ بالغِربان وغادرته الحياة.. فبدى شارداً في شمسه الغارِّبة، المتهاوِّية.. الهاربة.. معزولا على شاطئ النَّهر المهجور، وعشبة معونة النيل تغزل في موجه، آخر رسائلها للمراكب التي لن تعود إلى مرافيئها..

كان كل شيء يعلن بداية النهايات الوشيكة، لأطول تاريخ من الأحقاد والضغائن والعداوات والإحن.. الأنانية والاستعلاء والتهميش وقلة الذوق والأدب..

كل شيء تم إعداده بدقة: مخلوقات دمار العالم.. العزلة.. النّار.. الليل.. المطر والسيل.. فأنهارت في البدء كل الأبواب المغلقة تحت وطء زعر الأهالي.. إنهار قصر السلطان بكامله.. كان كل شئ قد أُختزل في برق العبادي الخاطف بصواعقه الرهيبة، التي أحرقت كل شئ، ليرى الأهالي أنفسهم للمرَّة الأولى:

نساءَ ورجالاً.. أطفالاً وشيوخاً.. كانوا جميعا عُراة "يتدافرون" في أمواج الزِّحام القاصدة الساحة التي تتوسط بندر الوادي، بينما مخلوقات دمار العالم تتناهشهم...

لحظتها صعد من أعماق التاريخ السحيق، إلى سطح حياتهم في رمقها الأخير. احساسهم للمرَّة الأولى بالهشاشة، على أنقاض الكبرياء الموهوم والإستعلاء الزائف.. تحرروا بموتهم من عقدة الذنب الخفيَّة.. الدفينة التي لم تخذهم كوخذ شوك القتاد يوماً...

إستمر ود التويم في محاولة فتح كوَّة في الجدار، كان كالمُغمَّى عليه في غيبوبة التاريخ.. غيبوبة الجغرافيا.. خارج الزّمن.. انزلق الازميل على سطح الجدار، مثلما انزلق هو بين أفواف غفوته، حيث لا مسارب للضوء.. فقط الغُبَّار ورحيق الذكريات والحنين..

تساءل من بين أحلامه الوسنانة: (هل يتوجب الآن حدوث الدمار الرابع.. تمزيق التاريخ المشترك والجغرافيا الأم.. تبديد الأقنعة والأساطير، كيما يتمكن الناجون من الحياة بسلام بعيداً عن إلحاقهم الأذى ببعضهم البعض، كما ظلو يفعلون دائما دون مبرر مقبول..)...

كيف بدات الحكاية إذن؟!

بندر الوادي ظل طوال تاريخه يتصوَّر دار الريح والصعيد, على النحو الذي "يريح ضميره" ليبرر غاراته على القرّى و"الفرقان والحلالات" فأهالي دار الريح والصعيد بنظره ليس ثمة ما يجمع بينهم ويماسكهم في كيان واحد قوي، فضلاً عن تدنيهم العرقي والثقافي والعقدي كما يراهم، ولذلك عمد إلى ضرب ستار كثيف حول حياتهم، مكنَّه من إستنزاف ثرواتهم ومواردهم، وبينما كان هو يزدهر، كان الصعيد ودار الريح يغرقان في ظلام كثيف من القهر والفقر والجهل والمرض والحروب الدائرية كحلقة جهنمية لا تنتهي..

فهذه سنة الكوليرا وحرب سهل القضيم، وتلك سنة الملاريا وغارات وادي القمبيل، وبينهما سنة الجدري ومعارك الحرازة أم قد..

هكذا كانت الحروبات والأمراض المنقرضة تاريخياً، تنهش أجساد أهالي الصعيد ودار الريح ودارصباح البعيدة الفقراء المتعبين...

لم يحاول البندر إذن تطوير فهم نبيل، يساعد على ازدهار الصعيد ودار الريح، بجعل أهاليهما شركاءً في هذه الأرض الواسعة وليسوا عبيدا عليها، أو عابري سبيل!..

ما جعل الأصوات التي كانت خافتة تتعالى شيئاً فشيئاً طلباً للتغيير وتقرير المصير. "دار الريح في طريقها للإنفصال" قال ود التويم.. رفع جقندي بصره إليه وقال بصوت بطيء لكنه واضح:

"كيف يمكن للسلطان والمطاليق أن يرغبوا في بقاء دار الريح جزءً من البلاد الكبيرة، في الوقت الذي ينظرون فيه إلى أهلها "كدون" ذوي عقائد وسحنات مشبوهة، ولا تجري في عروقهم دماء مقدسة أو نبيلة كالدماء التي تجري في عروق أهل دار صباح.. الأفضل أن يمضي كل في طريقه بسلام.."...

وقبل ذلك بوقت ليس قليل، كان بعض المغنون والمشردون وعقلاء كثر قد استشعروا الخطر المحدق بالبلاد الكبيرة، فرفعوا أصواتهم. وعندما طالتهم يد الجنكويز الباطشة، هربوا إلى مملكة الجوار أقصى السافل، وتتالت موجات الهرب من الصعيد ودار الريح وبندر الوادي، ثم تداعت الأحداث بانفصال الصعيد..

وفي خضم هذه الظروف تآمر المطاليق على ود التويم ودسوا له عند السلطان، وزعموا أنه وراء تهريب الأهالي إلى مملكة الجوار في السافل الأقصى، ليقودوا ثورتهم على البندر من هناك، فأصدر السلطان أمراً باعتقاله ومصادرة كل ممتلكاته!

وعندما إلتقى ود التويم جقندي بعد اطلاق سراحه مباشرةً أخذ يبكي ويقول:

"الما عندو جماعة ولا مال هل يبكي عمره عمال على بطال؟"

فهدأ جقندي من روعه قائلا:

"الجماعة ما بتنزل على رأيك والمال ما بيدوم والما عندو ذكر للروح العظيمة يموت مغموم"

فرد ود التويم:

"إنما أبكي على الوادي.. هل يستحق الوادي كل هذه الأحزان والضياع؟ هل يستحق أن تغتال ذاكرته ويترك للموت وحيداً؟!"

"لكنه صنع هذه النهاية لنفسه.. نسجها بعناية ودقة.. كان كل شيء متوقعاً.. الجميع كان يعلم أن الوادي يمضي إلى حتفه باصرارر"

رمى جقندي كلماته بوجه ود التويم ومضى. صعد والأهالي والمشردون خلفه إلى شرفات جبل كارناسي، وأخذ الوادي المنسي من بعيد ومن أعلا يتضاءل شيئاً فشيئاً، والنيران تشتعل في كل شبر فيه، فتستيقظ الأرواح الضالة والظلال المعذبة وتحترق...

يتبدى درب يفضي إلى نقطة البدء في الرحيل والتنقل المستمر.. يختبرون فيه يقيناً لا يفتر بعد أن شيدوا من الرماد النَّقي ذاكرة وغزلوا عزلتهم من غبار الشهب..

كانوا عزلاً إلا من ذكرى عتيقة وحنين قديم ثاو في أعماق الذاكرة المنهوبة، التي تعيدهم الآن في حياتهم الأخرى إلى جراحاتهم الغائرة التي لا تندمل.. جراحات بلاد غادرت نهرها.. واديها.. قمبيلها.. طيورها.. بلاد احتجبت في الحضور الوهمي لأكاذيب النقاء العرقي والسلالات المقدسة للشرق السعيد، وبقايا أقاصيصه القديمة ك"أنا" ليس بعدها في الخلق أنا!..

الذكرى التي لا تستحق أن يحزن لأجلها أحد... الآن يُشرع الناجون الذين يشقون بعصيهم في نهر النار درباً للضفة الأخرى، يشرعون أنفسهم على الفراغ العريض للخلاء الواسع.. تضع خطواتهم على تراب الطريق، أولى الخرافات الجديدة. التي تأثثت بمخلوقات دمار العالم والريح والحرائق..

يضعون بصماتهم على سطح الماء ليحملها، وبعد أن ينحسر السيل، يرمي بها إلى شواطيء بعيدة.. يدفنها بالرَّمل. ليجدها العشاق والمغنين ورواد الأندايات، بعد عشرات السنوات، محبوسة في قمقم يفتحونه على آلاف الحكايا، عن وطن تم تشييده في المنفى وأنين أم كيكي؟!...

لكن الحكاية لم تبدأ لتنتهي هكذا.. بدأت بالحب وفي الحب؟

من أكثر الأمور التي لفتت إنتباه جقندي في هذا الوادي، هي علاقة الناس بالحب، فسكانه الذين يعتقد أي منهم بسخاء مريب، في أنه أفضل من الآخرين، ويبدو كريماً وشجاعاً وودوداً لأقصى حد. في أغلب الأحيان هو ذاته من يتسرَّب كل صديد الأرض وديدانها من نفسه الخرِبة المتهرئة، وبينما يتحدث عن الفضيلة يأتي بكل أنواع الرذائل والشرور، فيما لسانه يلوك كلمات السلام والمحبة حتى لتخاله الجنزير التقيل؟!..

كان أهالي الوادي إذن على الدوام، حتى في مشاجراتهم العائلية، يسعون لمضاعفة احساس بعضهم البعض بالذنب والإيلام، بالمبالغة في تصوير الأخطاء الصغيرة والجرائر العابرة، وذلك لم يكن يؤدي سوى إلى إحياء المرارات والأحزان والآلام القديمة بقوَّة، مرة أخرى ومن جديد. حتى أن الوادي يبدو كمكان عتيق لرعاية الأحقاد المتجددة.. لذلك توقف جقندي أمام سؤال ما يعنيه الحب لهؤلاء الناس؟!..

وفي الحقيقة كان الحب الذي يمارسونه نوعاً غريباً من الحب.. إذ يبدو أحيانا كشمس ساطعة هادئة الحرارة، في خميلة تضوع فيها كل الروائح العطرَّة، وتجري فيها الجداول الصغيرَّة، التي تروي أزهارها وأشجارها وورودها..

خميلة مسكونة بعصافير الجنّة الملوَّنة، التي لا تكف عن الغناء.. ويبدو له في أحيان أخرى كعاطفة ملعونة تتسرّب نيران الهجر والأحزان فجواتها، التي تتسع ببطء مرعب، يُغذي المخاوف وانفلاتات البلوغ، التي تصنع بقعاً صغيرَّة متعفنة بين الأفخاذ الجائعة...

كان إذن وغالباً يبدو أسوأ من "أندايا" كبيرَّة يشقها النَّهر قسمين، مثلما يبدو أحياناً المكان الغامض نفسه الذي ألفه الرُّحَل وأدركوه كما أراد لهم الروح العظيمة تماماً!

رغم الإنحطاط الأسطوري الذي يزرع أسئلة حائرة في الأدمغة، التي تنتمي لكل سلالات الأزمنة الغابرة، الغارِقة في أسرار المادة والروح، المجرَّدة من أي نزوع ألوهي تطمئن له النفس!...

أنه الوادي إذن كما تكوَّن في التشظي، وتمزق عالم يؤول للإنهيار.. عالم تنهض فيه القِبَل الأربعة لبندرة مغموسة في النقع والغبار، حيث تبدو ملامح الأهالي عابرين السبيل، في وطنهم العابر، والجنكويز شبحية، كشخوص مجهولين، جاءوا من كل مكان يحملون أحزانهم..

يحملون حرمانهم وهزائمهم.. احباطاتهم وخذلاناتهم العميقة... فالجنكويز الغرباء لم يأتون كالمغنين الجوالة، المرتحلين بغنائهم الرومانسي المعذَّب حتى في اللانهاية، كأبونافلة المغني الأسطورة...

فأبو نافلة ما أن بلغ الثالثة من العمر توفي أبوه، فتربى عند (خواله) في دار الرّيح، ثم ألتحق بالرُّحَلْ ولم ينل من علومهم شئ! ولذلك لقب بأبي نافلة، فقد كان شغوفاً بالغناء والمسادير والدوبيت والجراري والمردوم والشاشاي.. ولهذا السبب وجد معارضة شديدة من أهله، فهرب إلى بندر الوادي...

هكذا مثل الآخرين جاء عابراً بخياله (طابقا على ظهره القوقو) يحمل وعثاء الطريق داخله. ليعبر المدى الواسع، الذي تعبأ بكل ما توهمه الأهالي والمطاليق من حب وراحة بال..

كان غريباً مثلهم. اتكأ على صدر البندر ينفض عنهم وعن نفسه العذابات، لينهار وجدانهم مثلما نهض في الإنهيار بفعل الغربة والحنين.. غربتهم عن الشرق السعيد.. وغربته عن الصعيد ودار الريح...

وجدان الأهالي هو بندر الوادي نفسه لحظة الميلاد، في قلب سوق {العناقريب} أو سوق {السراويل} حيث يستمرأ الجميع تعاطي الأحاجي وحواديت البلاد الكبيرة، عن الذي يأتي ولا يأتي، وميلاد عصر جديد تفتتحه {الأندايات برياتها الحُمر} المميزّة، ليتغلغل التواصل بين الجزر المعزولة في الوجدان بعيداً عن الجغرافيا، فيُخرج الأسلاف المزعومين ألسنتهم ويهزُّون أُذونهم!...

الأسئلة في بندر الوادي عادةً مضرجة بالدماء والنزيف، كالنزيف على جبل كارناسي.. هذا النزيف الذي لم يشيد شيئاً وهدم كل شئ!..

كيف لهم أن يفهموا أن جبل كارناسي خارج إطار الفيزياء، وأنه مهما نزف -مع ذلك- سيظل أخضراً في فضاء البندر الملتاع بأُحجيات المهاجرين القدامى والجدد..

مبتدأ التمزقات والجنكويز والفوضى.. ربما ينفي كارناسي نفسه كأبي نافلة.. يزحف عميقاً في طبقات اللاوعي القصوى، ليحرر النَّاس والطير وبندر الوادي وأشجار القمبيل. حافراً في مزيد من الأسئلة الحرجة والحارقة، حيث يمر الرُّحَلْ في ثيابهم الجديدة عبر ثقوب الآيديولوجيا، ليحتدم سؤال الهوية ويلف ويدور حول نفسه..

وحول ما إذا كانت ونيسة الحنانة أجمل أم جليسة المشاطة أجمل.. أو أن ما قتل المغني أبونافلة هو الحب وليس {سم ثعبان أبوالدَرَّق الكافر}.. فيما كل المدلين بدلائهم والدلاء ذات نفسها تتدلى في الفراغ!...

إلى بندر الوادي يأتي القلقين والموتورين، الذين لا يستطيعون التخلص من حساسيتهم المفرطة، التي تجعلهم يبدون كمشئومين مهددين بالغربة والاغتراب حيث هم محض وهم أينما حلوا!..

وربما توهم بعضهم المنافي بعيداً عن الوادي..

كانوا جميعاً: هؤلاء وأولئك، مصابين بأدواء الغربة وأمراض الحنين، يغمدون تأوهاتهم في مزيد من الجراحات، أقصى تفاصيل الفجيعة والدمار.. الواحد منهم على الدوام يمضي بإحساس محارب منقرض!...

أنه وادي الجنكويز.. وفي الوقت نفسه هو وادي المشردين والأهالي عابرين السلسل في وطنهم، الذين يبدون كقوم بسطاء.. وهو مع ذلك وادي الباحثين عن وطن دفء..

جميعهم، يفيقون الآن من سكرٍ دام لعقود طويلة على وقع الدمار الرابع.. فيما مديات الألم والرعب تتسع، إلى حدودها القصوى وتبلغ منتهاها في العيون الخبيئة الكابية.

ففي فراغ البندر تمر الصور.. الذكريات والأخيلة التي عاشوها متمزقة بالأسى والحرمان واللهفة، فيما روح كارناسي الشاب تحفر على جدار الكهف المقدس، أحداث ووقائع العذابات اليومية، بوحدتها ووحشتها وأساها، في الخط الفاصل بين عالمين، ينطوي كلاهما على نبؤة المأساة...

شعب الوادي الذي يتكون في التمزق الشامل للناس والحياة والوادي ذاته.. الوادي بطبيعته وناسه واحساساته الغامضة.. الوادي الشاهد على اندثار الأجيال الملاحقة بأسئلة الوجود الكبرى عن المصير والمصير؟!..

حياة الوادي المتبدلة هي حياة الأسئلة الحارقة نفسها، منذ كان السؤال هاجساً في خاطر الكون، في لحظة دقيقة تفصل بين عالمين، ينهض على ركامهما وادي آخر، كشاهد على عواصف الدمار الرابع..

لحظة الخروج من ظلمات الوادي، بزوابع التاريخ. إلى نور الطوفان الذي أغرق الوادي في الأسى والحيرَة... و..

و.. وبعد أن مضت على جقندي عدة أيام منذ آخر لقاء له بالسلطان، جاءه ود التويم وقال له:

"زوج أختي مات وتركها صغيرة وغنية وجميلة، لكن رجال الوادي لا يحبون المطلقات، أمشاك معاي.. نزوجها ليك، وتعطيها وتعطي كل أهل الوادي علمك.. هذا هو مهرها"

فرفض جقندي العرض، وأخبره أن على أهل الوادي طلب العلم من المشردين، الذين كانت حلقات بعضهم، ممن إتخذوا {العصا أو القرف} أو.. شعاراً.. قد بدأت في العمار، إذ إجتمع عليها (خلق) كثيرون إذ كانت {نار سوميت} موقدة طوال الوقت، والمشردون قائمون على خدمتها، وبعض الأهالي قد تنامى فيهم (عشَّم).. خصوصاً ود التويم، الذي كان منذ طفولته الباكرة يشعر بقوَّة خفيَّة، تشده بقوَّة لإعتلاء قمة جبل كارناسي. فكان يتسلل -وقتها- خفيَّة من عيون الأقران والأهل والعشيرَة. يشق طريقه عبر {جُنقُل السُلطان} ويمضي دون أن يوقفه شيء:

لا المخاوف التي تملأ الوادي فيما يحكي الأهالي عن الجن الذي يسكن الجبل، ولا شياطين الظلام.. ولا الأرواح الشريرَّة ولا الجنكويز.

يبدأ ود التويم رحلته متشبثاً بالحجارة الناتئة، مرتكزاً بقدميه على شقوق الجبل وبروزاته الحادة. يصعد.. يصعد مدفوعا برغبة بلوغ القِمَّة، وإكتشاف أسرار الجبل في ذروته، التي تلامس السحاب، حيث تبدو أشجار القمبيل والوادي من هناك، كظلال تختبيء خلف ضباب رطوبة الوادي المتلفع بعتمَّة التاريخ.

في عروق ود التويم تجري دماء بلوغ القِمَّة! المنحدرَّة من الجد الكبير {سِراج البيت} الذي عاصر بادي الجنكويزي، في ذلك الزمان البعيد من ضلالات الوادي. كان سِراج البيت قد تزوج بإمرأة من الرُّحَلْ، أنجبت له {حَرَّاس العَقَاب} و{ست الدار} التي إختطفها بادي وأنجب منها الجنكويزي {الدود أبوحِجِل}.

من دماء حَرَّاس العَقَاب جاء ود التويم بعد عشرات السنوات، مثلما جاء {أبو شوتال} من دماء الدود أبو حجل من بعد.

في تلك الظهيرة البعيدة. الملأى بأسرابِ الجراد، التي حجبت قرص الشمس، مما عمَّق الخوف في فضاء الوادي، ولد حَرَّاس العَقَاب، ولما كان والده سِراج البيت شيخ أحد عشائر الوادي ذات الشوكة، والتي تحتكم على الكثير من العبيد والجواري والقطعان، ومشاريع الزراعة والأراضي، فضلاً عن نفوذها التاريخي، الذي جعل أفرادها دائما وفي كل العهود، أعضاءً دائمين بالوراثة، في مجلس العشائر والأسر، الذي هو مجلس السلطان نفسه!...

إهتم سراج البيت كثيراً بأن يتلقى إبنه حَرَّاس العَقَاب، كل ما يمكن أن يحصل عليه من علوم، تفيده في وراثة موقعه في مجلس السلطان بعده، فبعث به إلى دار الريح، ليغترف من علوم الفقرا، ويعرف لغات القبائل.

وكان حَرَّاس العَقَاب بذكاءه الوقاد، قد إستطاع تعلم أربعة من لغات دار الريح، وعندما عاد إلى الوادي لم يلبث إلا قليلاً حتى بعثه والده إلى الصعيد، وهناك تعلم ثلاثة لغات أخرى.

كان حَرَّاس العَقَاب من دون كل أقرانه ورغم صغر سنه، الوحيد الذي يتحدث سبعة لغات حيَّة؟! من لغات الوادي؟!..

وعندما توفي والده سِراج البيت، الذي كان يجمع في عشيرته بين الزعامتين:

الروحية اللازمنية والدنيوية المتغيرَّة، حرص حَرَّاس العَقَاب دونا عن اشقائه وأعمامه، على وراثة كل شئ، فقد كان يتصور أنه الأفضل، دون أن يطلع على ما يفضله أهالي الوادي في حياتهم اليومية..

ورث الزعامتين إذن رغم أنف شعب الوادي عابر السبيل!.. ورغم أنف كل الإعتراضات الكثيفة داخل عشيرته المالكة.. لم يأبه لأحد!.. وتمكن من فرض نفسه على الجميع، كزعيم روحي لا يأتيه الباطل من شنآن وكزعيم زمني مفوَّه!..

وفي الحقيقة أن حَرَّاس العَقَاب امكن من فرض نفسه، ليس لأنه يحظى بما لا يحظى به سواه، ولكن بسبب تقربه زلفى من السلاطين المستبدين الذين تعاقبوا على الوادي، والخدمات الحليلة التي قدمها أهم لتحويل شعب الوادي من شعب ضارب الجذور إلى شعب منبت، أشبه بعابر سبيل على تاريخ البلاد الأسيرة.

ففضلاً عما أتصف به حراس العقاب من تردد المواقف في اللحظات المصيرية، فقد كان الرجل أيضاً يهون من شأن المشردين وتململهم، إلى أن قرر قبيل الدمار الثالث الانحياز ضد المشردين وتخذيل تصعيدهم الثورة ضد أبولكيلك الجنكويزي.

فالرجل رغم إدعاءته بما ينسبه لنفسه من ألقاب رفيعة لم يتوانى عن إبتذال ثورة شعب الوادي، فوصفها بـ {بوخة المرقة}، تلك الساونا التي تقدم عليها النساء قبيل مفارشة أزواجهن!

الأمر الذي دفع {أسياد الرصة والمنصة وراستات} الوادي لتأمل مفردات الرجل التي يهيمن عليها الجنس، في مقام لا يتصل بالمعارك الليلة في غرف النوم والأَسِرَّة؟!

ومع ذلك للقضاء على المشردين، نجح الرجل في التآمر مع الجنكويز لإحداث المجزرة التي ترسخت ذكراها في عرصات الوادي شِعباً شِعباً ومجرىً فمجرى!

مشكلة حراس العقاب التي ظل الوادي يعانيها، نرجسيته وأنانيته المبالغ فيها وتضخم ذاته المشوهة، وإعجابه الغريب بنفسه.. وهكذا عبر سلسلة معقدة من الإجراءات والمناورات الماكرة، تمكن من سحق معارضيه داخل الأسرة، وتنحية عمه الأصغر، والتآمر مع أبو لكيلك على قتل عمه الأكبر، وإزاحة كل منافس داخل الأسرة ومجلس السلطان وكل شئ، لينزوي بعيداً في إرشيف الوادي البائس..

وهكذا ملأ حَرَّاس العَقَاب الأمكنة التي أشرف بنفسه على شغرها. بعد أن قام بترتيبات عديدة مع السلطان والجنكويز المطاليق، وبعض أعضاء مجلس السلطان الذين كان قد أغرى بعضهم بتزويجه من شقيقته الصغيرة (ست الدار) لتكون حلقة الوصل بين بين..

وفي ذلك الوقت، وعند موت السلطان (الكرباج) انقسمت العشيرَة الملكية، وأستولى بادي الأخ الأكبر للسلطان (جبل الحديد) على المُلك، فقاد حَرَّاس العَقَاب بمساعدة الجنكويز وعشيرته، معارضة مخادعة لإسقاط بادي وإعادة أخيه الأصغر (جبل الحديد) الملك المخلوع...

في سنوات مراهقته، لازم حَرَّاس العَقَاب الشايب الجنزير التقيل ردحاً من الزمن. وقتها كان الشايب الجنزير التقيل قد وطن نفسه على البقاء في الوادي، فقد كان الناس عندما يعرفون في ذلك الزمان، أن قوافل الرُّحَلْ تمر ببلدانهم (الآن)، يتقاطرون عليها من كل مكان لزيارة الجنزير التقيل.. يأتون {دافرين} منهم من يحمل العسل ومنهم من يحمل السمن، ومنهم من يحمل القماش ومنهم من جاء برقيقه:

"كل واحد يقع قدر قدرتو.. الجمل بشيلو والحمار بشيلو"..

جميعهم يأتون لزيارته، فيستقبلهم لابساً {شملته الرباعية}.. ناره موقدة طوال الوقت و{قداحته} ستون قدحا، و{الكسرة مديدة} تسوطها نساء الرحل في {البُرام} شادات وسطهن بالمناطق.. ووصفة الكسرة دقاقة. نجيضة. وخميرَة الماء عليها مثل الفلفل، تارة تكون بالملاح وتارة تكون بالماء(ثخينة).

وكان الجنزير يتقبل هداياهم ثم يعود فيعطيها (للعُشام) بعد أن يقضي غرض كل الزوار بمطالبهم المختلفة، ففيهم من يطلب المال وفيهم من يطلب الولد وفيهم من يطلب الصحة والعافية أو تقريب البعيد، لكن أكثرهم كانوا ممن يريدون أن تكف أيادي الجنكويز عنهم...

لكن علاقة حَرّاس العقاب بالجنزير التقيل لم تبدأ هنا في هذه اللحظة التي قرر فيها البقاء في الوادي، فقد قضى حَرّاس العقاب من قبل بنهجه الحربائي ردحاً من الزمن في مضارب الرُّحَلْ، لينهل من علومهم وأسرارهم، حتى عدوه واحداً منهم، وزوجوه من إحدى بناتهم..

حياته في مضارب الرُّحَلْ فتحت ذهنه على الكثير من الأمور الغامضة، في تاريخ الوادي والحياة والناس وأسرار الروح العظيمة، ما حفز ذكاءه الوقاد وأرتقى بمهاراته، التي تبدت بوضوح في قدرته على حسم الصراع على الزعامة الروحية والدنيوية، داخل أسرته لمصلحته بعد وفاة والده بقليل!

وبدأت تلك المهارات تعلن عن نفسها بوضوح أكثر عند إستيلاء بادي على المُلك ومقاومة حَرّاس العقاب لهذا الإنقلاب، ونجاحه في إعادة السلطان جبل الحديد مرّة أخرى.

تفتح وعي حَرّاس العَقَاب على الصراعات، التي تجري في الوادي في مرحلة معقدة وحرجة من تاريخه، إذ وقتها كان الصراع محتدما بين تيارات عدة:

فهناك من يمثل أفكار الرُّحَلْ بقيادة (العنتيل).. وهناك من يمثل أفكاراً قريبة الشبه من أفكار حَرّاس العَقَاب، في جوهرها لكنها تختلف عنها شكلاً، وهذا التيار كان يقوده (أب زنقلة) الذي كان ينادي بوحدة الوادي مع مملكة الجوار في السافل الأقصى، بينما كان حَرّاس العَقَاب يرى ضرورة بقاء وادي الذهب مستقلاً.

هذا الإنقسام في التوجهات، كان متمكناً أيضاً من الأهالي الذين كان عقلائهم بقيادة العنتيل، يسخرون من أب زنقلة وحَرّاس العَقَاب معا، فبينما يعتبرون الأول جاهلاً جهلاً تاماً! يعتبرون الثاني زائف الوعي، بصورة لا حدود لها، وأنه لم يأخذ من أفكار الرحل سوى القشور.

وفي الوقت نفسه كانت العلاقة بين عشيرَة حَرّاس العَقَاب وعشيرة أب زنقلة، التي لا تقل عن عشيرة حَرّاس العَقَاب نفوذاً على الوادي.. كانت علاقة مضطربة، تسودها المنافسة والمكايدات، رغم صلات المصاهرة والنسب والعقائد الطائفية العميقة التي تجمع كليهما..

و.. إذن رغم ذكاءه إلا أن حَرّاس العَقَاب، كان طموحه يفوق حدود قدراته ومواهبه الطبيعية، كما أن أب زنقلة كان بطبعه ميالاً للخلافات والإنقسامات منذ وقت مبكر في سنوات عمره، فقد إنقسم على أسرته وهو صغير، وعندما كبر قسم الأسرة التي كونها، وعلى الرغم من حرصه على أن يبدو دائما كمنشغل بهموم الوادي، إلا أن معظم النظريات الخطيرة، التي عصفت بالوادي كان هو من يقف خلفها.

لذلك كان جنكويز كثر يعتبرونه كخادم متطوع لأجندتهم الخفيّة، بل مضى بعضهم لاعتباره زعيماً روحياً سرياً لهم، رغم كراهيتهم المضمرة العميقة له..

وبينما كان أب زنقلة يدعو لفرض تعاليم الروح العظيمة، كان في الواقع يستغل هذه التعاليم، لإحداث الانقسامات والانشقاقات في الوادي، بما كان يُلبِسه لها من لبوس عنصرية، أسبغت على عشيرته صفة النبالة والملوكية، لكونها نقية العرق كما يزعم!..

الأمر الذي جعل جماعة العنتيل يعتبرونه مفسداً ومشوّهاً لتعاليم الروح العظيمة، ومصاباً بجنون العظمة ضمن أدواء مزمنة أخرى لاحصر ولا عد لها!...

فأب زنقلة لم يكن يتورع من نسب نفسه لشعوب الشرق السعيد، التي هيأ له خياله العجيب أنها أرقى؟!

وهكذا أمعن في التعالي على الإنتساب لشعوب وادي الذهب وأهاليه البسطاء. وهو الأمر الأساسي في تفكير أب زنقلة الذي جعله مقربا من سلاطين كثر حكموا الوادي، وعاصرهم على عهد سطوة الجنكويز المطاليق.

حتى أنه عندما قام بادي بذلك الإنقلاب الشهير، كان أب زنقلة أول من دعمه سراً، فهو الوحيد الذي لم يتم إعتقاله عند نجاح الإنقلاب، بل وبعد أن تم إطلاق سراح حَرّاس العَقَاب والعنتيل والسلطان جبل الحديد، وتمكنوا من الهرب إلى مملكة الجوار في السافل، كان هو عراب مفاوضات الجنكويز السرية معهم، وكان هو من أول العائدين إلى الوادي، لمشاركة الجنكويز منحتهم له من فتات السلطة!

ورغم محاولاته الظهور بمظهر الداعية، إلا أن كلاً من العنتيل وحَرّاس العَقَاب، كانا يريان فيه شخصاً مخادعاً عاشقاً للسلطة ولا أمان له. صاحب طموح لا يحد وخبرة لا توصف في حياكة الدسائس والمؤامرات. أفصحت هذه الخبرة عن نفسها، في علاقته المريبة بـ (لاكو أتو) أحد أعيان الصعيد..

في الوقت ذاته الذي ولد فيه (لاكو) كان الوادي قد تغير كثيراً. أصبح سكانه عندما ينامون ويستيقظون في الصبيحات الباكرة، يجدون على فراشهم حيث ناموا رائحة غريبة وبقايا بلل، كأنهم يعودون لطفولاتهم المفقودة على أجنحة الفجائع والأحزان.

في غمرة مثل هذه الأحاسيس الشائعة نشأ لاكو في إحدى كبرى قبائل الصعيد، وكان منذ طفولته الباكرة مغرما بالتأمل، وعندما كبر قليلا تلقى علوماً ومعارفاً محلية كثيرة، خلال تجوال أسرته لسنوات عديدة بين قبائل الصعيد، كما تلقى العديد من المعارف عندما بعثه والده إلى الجوار، ما وراء منابع النهر الذي يتوحد في غفلة الجغرافيا ليشق بندر الوادي إلى قسمين.

هذه المعارف العديدة، جعلته يرى بوضوح:

أن أهل الوادي على إمتداده لا يعرفون بعضهم البعض جيداً، لكنهم بلغاتهم وعقائدهم المختلفة، يصلون للإله نفسه: الروح العظيمة الذي يعرفهم ويفهمهم جميعاً مهماً اختلفت لغاتهم والأماكن التي يعيشون فيها..

يعرفهم واحداً واحداً.. لكن فجأة تغير كل شئ، فكان من السهل عليه أن يرى الآثار التي خلفها فساد السلطان والجنكويز مرسومة بوضوح في كل شيء في أركان الوادي الأربعة، فالوادي أصبح كالمستنقع. يطفح بالوحل والروائح النتة والزنخة.

خلال سنوات تجواله الطويلة اكتسب لاكو الكثير من المعارف والخبرات، وأثبت كفاءة عالية وبعد نظر في الخلافات القبلية في الصعيد، والخلافات بين الصعيد وبندر الوادي، والتي قادت في نهاية المطاف إلى إصرار أهل الصعيد على الإنفصال، يقودهم لاكو أتو نفسه..

فمواهبه كمحارب جسور أيضا كانت قد بدأت في التفتق، وأخذ أهل الصعيد يعتبرونه زعيماً قومياً، بل أن الكثيرون من أهل دار الريح ودار صباح البعيدة كانوا يستلهمونه، وكذلك ناس السافل الأقصى أعتبروه زعيماً قومياً..

وهكذا كان لاكو ملهماً لشعوب الصعيد ودار الريح والسافل الأقصى ودار صباح البعيدة، حيث تبدأ الشمس رحلة الشروق.

إلى أن نجحت سلسلة من المؤامرات المعقدة، التي حاكها أبو زنقلة والجنكويز والسلطان جبل الحديد، بمهارة في القضاء عليه مسموما بسم (أبوالدَرَّق) وغريقاً في المركب التي كانت تقله من بندر الوادي إلى حاضرة الصعيد. {حتل به الجاسر} في منتصف المسافة وهو يحاول بلوغ الضفة الأخرى للنهر..

كان السُّم قد تمكن منه ولم يمهله. هؤلاء الرجال:

العنتيل، أب زنقلة، حراس العقاب وجبل الحديد و، و.. من دمائهم بعد عشرات السنوات، سيأتي أحفادهم ومريديهم الذين يجلبون المزيد من الدمار لوادي الذهب.. ويتسببون بسياساتهم المختلة في الدمار الرابع بُعيد إنفصال الصعيد بقليل.

المفارقة هنا أن هؤلاء الرجال الذين توهموا أنهم وأجدادهم وأحفادهم وتابعيهم وُلدوا كقادة، ظلوا يصرون على الموت كقادة، ولن ينجح أحد داخل طوائفهم في زحزحتهم من مواقعهم القيادية أبدا طيلة حياتهم الطويلة!

إذ يلاحظ أنهم لا يموتون سريعاً كبقية الكائنات.. وجميعهم بمختلف إتجاهاتهم كانوا مخادعين، وفي الحقيقة لا يختلفون عن بعضهم البعض كثيراً، مهما ادعوا التمايز عن بعضهم البعض أو حاولوا تمييز أنفسهم.

حاضرة الوادي، التي إعتاد الرُّحَل منذ عشرات السنوات أن تكون إحدى محطاتهم الأساسية، في مختلف عهود هؤلاء الرجال وأحفادهم، كانت أشبه بأوهام التاريخ المريرَّة، فقد كانت أكبر سوق رقيق في الوادي، ولهذا السبب بالذات كان إزدهارها لا تطفئه إلا موجات الجفاف والتصحر والأوبئة الكارثية، التي يكون دائما أغلب ضحاياها من العبيد والغلمان والجواري.

كان هناك ما يشبه التحالف السِّري غير المعلن بين هؤلاء الرجال -بإستثناء العنتيل- والجنكويز الذين ظلوا عبر تاريخ الوادي يؤثرون في إستمرار هذا المكان (بندر الوادي) كحاضرة لكل وادي الذهب!

فهذا البندر الرَّهيب كان على الدوام مقراً للحكم وقاعدة للإنطلاق نحو الحدود الواسعة للبلاد الكبيرَّة، التي يتكون منها وادي الذهب في إتجاهات القبل الأربعة.

الحوادث والكوارث دائما مركزها هنا: بندر الوادي. حتى المركب التي أقلت لاكو وغرقت به، وكل المراكب الأخرى التي أقلت كثر عبر تاريخ الوادي، وغرقت بهم. كانت دائما تقلهم من هنا. فتنتشر الشائعات بعد كل حادثة غرق، أن الجنكويز والسلطان هم من يقف خلف مثل هذه الحوادث المريعة.

وعندما يتأمل جقندي الآن سيرة حياة هؤلاء الزعماء وأحفادهم، يجد أنهم كانوا يعانون إحساسا غامضاً بعدم الإنتماء، فجميعهم كانوا أشبه بعابري سبيل يعانون الإنتماء إلى أماكن غامضة خارج حدود البلاد الكبيرة.. ما قاد الوادي إلى نهايته الوشيكة. التي لا جدال حولها، وهو ما لا يستطيع فهمه على الإطلاق!...

ورغم تحضيره لروح جده الجنزير التقيل مراراً وتكراراً، لفهم هذا الأمر. إلا أن الجنزير التقيل ذات نفسه لم يعطه (عُقاداً) نافعاً!.. فأخذ يجتهد ليدرك أن هذا الوادي ما هو إلا مكان ملتهب بالمخاوف والهواجس والظنون، يعتصره نوع غريب من الألم البطيء العذاب، والعِرَّى الفاضح، حيث تحاصر الروائح الزنخة والنتنة بكل أنواعها، كل شيء فيه، وحيث تجيء الأصوات المتناقضة من الأندايات لتحاصر فضاءه الشاحب!..

ومن بين كل هذه الأصوات يتعالى صوت أبو نافلة، الذي منذ حل ببندر الوادي ظل متمسكاً بالغناء. و رغم قساوة ظروفه وعنت حياته أستطاع تعلم العزف على الربابة وأم كيكي والوازا، واتصل بالتنقار مغني الوادي الأشهر، فوجد فيه الأخير موهبة كبيرة فاق بها فيما بعد مغنين زمانه، حتى أن التنقار شعر نحوه بحسد شديد، أفضى به فيما بعد إلى الموت بصورة درامية، إذ وجد ميتا وأم كيكي المتكئة على صدره، تعزف لوحدها!.

ووفقا للأحفورات على جبل كارناسي، أنه هدد أبونافلة أما أن يخرج عن البندر، أو يسلط عليه المطاليق فيغتالونه. ففضل أبونافلة الخروج عن بندر الوادي، قاصداً مملكة الجوار على حدود السافل، حيث تعلم هناك الكثير من فنون الغناء وطرائقه وألوانه، حتى ماهو غريب عن وادي الذهب. وأصبح بذلك من أمهر وأشهر المغنين والملحنين..

وعندما تآكله الحنين إلى الوادي إتصل بالسلطان الكرباج، يستأذنه ويطلب حمايته. وهكذا عاد فجعله السلطان من خلصائه وندمائه. فحاول إعادة صلته بالتنقار، الذي كان لا يزال من أنصار الغناء القديم على عكسه، فقد كان مهموماً بتجديد أغنيات الوادي العتيقة، بما أكتسبه من معارف موسيقية ثرِّية.

شيد أبو نافلة بعد عودته إلى الوادي داراً كبيرة، جعل حديقتها أشبه بحديقة قلعة بادي، التي تشبه الحديقة السماوية السرمدية.

كما قام بنقل الكثير من الأشياء من مملكة الجوار إلى بندر الوادي، كالأقمشة الزاهية والمزركشة والشيشة والكشري، وهو في الحقيقة صاحب أول مقهى ببندر الوادي.

كما تفنن في وصف الأطعمة والحلويات، وأحب العطور. بل وكان هو أول من إستخدم الصابون المعطر ومزيلات العرق، وزيوت الشعر المعطرة بزيوت كان يستخرجها من الريحان وونبات السعدة الجذري، بدلاً عن الودك والكركار وزيت السمسم أبو الولد. حتى أن الأحفورات تؤكد في كثير من المواضع، أنه ارتقى بالذوق العام، عندما تصف الطريقة التي كان يأكل أو يشرب بها، فقد كان يمضغ الطعام على مهل وفمه مغلق.. ويتحدث بأناقة. وكان جملةً يلفت الأنظار بسلوكه الرفيع غير المألوف في هذا الوادي المأساوي الكئيب!ومع ذلك كان بهيمياً جداً عندما يسكر وتغدر به المريسة أو العرقي...

وتذكر الأحفورات هنا، أنه أول من لفت نظر نساء البندر، إلى إستخدام المناديل كهدايا للعشاق وألف في ذلك أغنية سار بصيتها الركبان..

كما وأخبرهن أنه يتوجب عليهن أن يطرزن على هذه المناديل قلوب مطعونة بسهام ورماح، أو زهور محطمة، أو ورود منكفئة على الحرف الأول من إسمي الحبيب والمحبوبة، وأن تكون مختلفة الشكل واللون والطول والحجم.

إقترح أبو نافلة على السلطان أن يتركه يعقد حلقة لتعليم الغناء والرقص والعزف على أم كيكي والزمبارة والوازا والربابة، فكان له بذلك الفضل في تعليم جواري الوادي هذه الفنون، فبرعن في العزف على أم كيكي وعشقن الزمبارة كثيراً وأحببنها أكثر من كل الآلات الأخرى، وبرعت في تعلم العزف عليها كل من (جليسة) المشاطة و(ونيسة) الحنانة، والإثنتين كان قد أهداهما له السلطان الكرباج عندما أبدى إعجابه بجمالهما في حضرته في إحدى حفلات القصر الخاصة.

وفوق ذلك كان أبونافلة يكن محبة خاصة للمشاطة المغنية، التي كانت من أجمل النساء وأكملهن، وقد قال فيها من الشعر والغناء العذب، ما جعل إسمها على كل لسان. فهي حينا ملكة النهر وهي حينا إبنة التمساح العشاري وأب كيلو وأسد البراري أو تمساح الدميرة.. وهي حيناً آخر إبنة عشا البايتات كحل السراري..

وتذكر الأحفورات في هذا السياق أن المشاطة دعته يوما.. وهو في طريقه إليها اعترضته الحنانة، فأقام عندها. فشق ذلك على المشاطة، وشكّلت هذه الحادثة، منعطفاً خطيراً في حياتها معه، إذ أصبحت لا تغني سوى غناء الحزن والحسرَة والأسف لتنقص على كل العشاق حياتهم، الأمر الذي أدى إلى أن يبيعها في سوق دار الريح بأقل من ثمنها بكثير، لكن عندما طال به الحنين وفاض به الشجن، مضى يبحث عنها وإشتراها بأعلا من ثمنها بكثير، وعندما عاد بها –وفقا للأحفورات– أقام معها في حديقة داره لا يفارقانها، يلهوان ويأكلان ثمار القضيم، حتى (شرقت) المشاطة بحبة قضيم فلفظت أنفاسها بين يديه..

فجن جنونه على موتها بهذه الصورة الدرامية، فابقاها ثلاثة أيام يشمها ويقبلها ويذرف الدمع الثخين على فراقها، حتى عاب عليه معجبيه وندمائه ذلك. وبعدها بثلاثة أيام مات هو الآخر مقتولاً بسم أبو الدفان!

ولم تنتهي بموته حلقة تعليم الغناء، إذ استمرت تثمر مغنيين ومغنيات غالبيتهم العظمى يخلون من الموهبة تماما!. لكنهم على أية حال لديهم معرفة عامة عن العرضة والصقرية والكمبلا والمردوم والجراري والشاشاي، كفنون إخترعها أبو نافلة أثناء تدخينه البنقو!

إذ كان عندما يجري الدُّخان في دماغه يشعر بنفسه ضخما كالفيل، وهكذا أنتج هذا الضرب من الفنون الفيلية، التي يرقصها ويغنيها الأهالي.

كان سلوكه اليومي تماماً كشعره وغناءه ورقصه، فقد كان سباقاً إلى العديد من المعاني والصور، وكان أصفيائه يدعونه بـ {صعلوق آخر الزمان} نظراً لتهتكه أحيانا في سرد قصصه الغرامية، فهو أول من أدخل الغناء والرقص عناقريب النساء في بندر الوادي!

كما كان في أوقات فراغه يحب التسكع بين الأندايات، وسمي وادي الغزلان بهذا الإسم نظراً لأنه كان يتسكع فيه لأيام طوال، فيولم ويشرب الخمر والحشيش، ويسقي ندمانه ويأمر جاريتيه المشاطة والحنانة بالغناء والرقص!

ولا زال متسكعاً بهذا الوادي حتى هجرَّه (الوزين) والغزلان، وجفت غدائره وأشجاره، لكنه ظل يحمل إسمه القديم.

وكان أحيانا يغير مع الجنكويز على القرى والفرقان في دار الريح، وفي الواقع حياته كانت قصيرَّة لكنها طويلة بسبب ما تراكم فيها من وقائع، وما عاصره من حادثات. وبسبب كثافة إنتاجه ونوعيته.

فوفقاً للأحفورات على جبل كارناسي أنه ألف ولحن وغنى أكثر من ثلاثة آلاف أغنية؟ صنفها في ثلاثة مراتب، الأولى: بديعة. والثانية: وديعة. والثالثة: رائعة.. وحاول إبنه الخزين من بعده، إعادة تقييم هذا الإنتاج الكثيف، تحت وطء الثرثرات والسجالات والنميمة في الأندايات، والانفجار المدوي للغناء، إذ باغت السلطان الجنكويزي شعب الوادي بإطلاق عشرات المغنيين ومئات المغنيات من أخماس وأعشار الموهوبين والموهوبات، برعايته شخصيا ليشغل بهم الأهالي عن التفكير في مصائرهم الحتمية!

ولذلك حفاظا على المقام الذكي لوالده، تفرّغ لهذا الأمر تماماً، فلم يجد شيئا جديراً بنسبته إلى هذا المقام، سوى ثلاثة قصائد بائسة، ولحنين فظيعين، وأغنية مريعة!..

لكن ولاحقاق الحق أن أبي نافلة تمكن من إدخال تحسينات كثيرة على الغناء وآلاته، حتى أن البعض كان لديه إعتقاداً جازماً، أن الروح العظيمة شملته بعناية شخصية مباشرة وفائقة وخاصة جداً.

تشير الأحفورات على جبل كارناسي، أن من وضع ابوالدّفان بين ثقوب {عنقريب القِدْ} الذي ينام عليه أبونافلة هو التنقار، لكن معجبيه يؤكدون أنه مات (حباً) فسُّم أبو الدفان.. وفقا لمزاعم الأحفورات، أهون من أن يؤثر في جسده الذي اصطفاه الروح العظيمة بالحيوية..

دليلهم على ذلك أنه كان مع المشاطة حتى الرَّمق الأخير من أنفاسها الفائحة برائحة القضيم.

وعلى كل حال شيد له الأهالي مزاراً على الضَّفة الأخرى من النَّهر، أصبح من أهم أضرحة ومزارات الوادي، الذي دان له بالوفاء عبر التاريخ، الذي سينقضي بحلول الدمار الرابع..
ولا يزال أهل الوادي حتى تلك اللحظة الفاصلة، يتوقفون عند غنائه ويجعلونه معياراً لنهضة الشعر والغناء والألحان أو تدهوره، خصوصاً أن أولئك الذين يرتادون الأندايات، قد عنوا به وعظموا من محاسنه وأقبلوا على نشره في كل الأندايات!

٢

فتاة الرُّحَلْ التي تزوجها سراج البيت، كان قد رآها عندما حط أهلها رحلهم على وادي الغزلان، قبالة جنقل السلطان.
أنجبت له حرّاس العقاب، الذي ما أن بلغ سن المراهقة، حتى أوفده سراج البيت إلى خيلانه الرُّحَلْ، لينهل من علومهم ومعارفهم، التي أشتهروا بها. وفي الحقيقة كانت تلك هي فكرة زوجته {بت أب دفرة} التي ظل يتآكلها الحنين لحياة قومها، فمنذ تزوجت سراج البيت وإلى أن أنجبت له ست الدار، لم تخبو جذوة حنينها إلى تلك الحياة، التي تشعر فيها بكيانها المستقل، كنساء قومها اللائي لا تتأثر استقلاليتهن حتى بالزواج.
فالمرأة في مضارب الرُّحَلْ عالية المكانة، حتى أنها هي التي تسارع بتقديم وعاء اللبن للضيف، ترحيباً به.
ونساء الرُّحَلْ لسن كنساء البندر، إذ يُنسب أبنائهن إليهن وليس لآبائهم.
كان لديها الكثير من الخواطر التي تسري في مجرى الذكريات المرير، الذي تؤرق تدفقاته الحارقة استقرارها وتقض مضجعها.
تغيرَّت حياة بنت أب دفرة إذن.. ولم تعد حياتها في الوادي، هي حياتها ذاتها.. تلك الحياة التي ألفتها مع قومها الرُّحَلْ منذ نعومة أظفارها، وحتى تفتح جسدها ووعيها على الدنيا، فلم تجد لمداواة الحنين سوى أن تتعلم الغزل والنسج، فكانت تمسك (المترار) بيدها اليمنى، وباليسرى تبرم القطن وتشده وهي تحرك مترارها في الوقت نفسه، فيما الخيط المغزول يتحرك بانتظام رتيب غدواً ورواحاً، وشيئا فشيئا يتشكل القطن كرّة من الخيوط الجاهزة لصناعة ثوب أو غطاء ما.

عندما إختفت إبنتها ست الدار، ذلك الإختفاء الغامض. إشتد خوفها على حَرّاس العَقَاب كثيراً، فأخذت تحدث سراج البيت، وتكرر على مسامعه الكلام دون كلل أو ملل، إلى أن استطالت أذنيه فاستجاب آخيرا لرغبتها، وبعث بحرّاس العقاب إلى خيلانه الرُّحَل. وهكذا خطى حَرّاس العقاب خطواته الأولى.

من سلالة حراس العقاب بعد عشرات السنوات سيأتي ود التويم، الذي كان والده التويم أيضاً قد أرسله إلى مضارب الرُّحَلْ، ليتلقى علوم الأولين والآخرين، إلى أن يقع بصره على الصَّبية الفاتنة (بنت شيقوق) إبنة أخ جقندي. فيهيم بها حبا. يتزوجها. ويعود بها إلى الوادي ليقيم مع والده التويم ووالدته حميرَّة.

في هذا المناخ إذن ارتجف قلب (بنت شيقوق) عندما لفحه (سموم القبلي) فعصر بنت شيقوق كان عصراً عجيباً، إذ كانت نساء زمانها عادةً، يعتزلن بيوتهن في أوقات القيلولات. بعد أن يكن قد جئن من السوق الصغير، وقد جلبن إحتياجات الحياة المعيشية اليومية.

وما أن ينتصف النّهار، حتى يتجمعن في قعدات القهوة، يدقن البن ويطلقن البخور، الذي تنطلق معه كل شياطينهن الخبيئة، تنقلن عدوى النَّميمة والقطيعة، في سماء الوادي فاحش البذاءات.

تلك الحكايا التي تتناول سيرة الفتيات، اللائي يمارسن الحب في صعوبة وسرِّية، لا تخفى على قعدات القهوة، التي تلوح فيها حياة الوادي، غارقة في الخواطر الملتهبة، والأخرى الباردة، التي تقاوم سموم القبلي. في ذروة إنعقاد جلسات القهوة!

حتى أن أحد السلاطين شتمهن في أحد خطاباته الجماهيرية، وأصدر قراراً رسمياً، يمنع قعدات القهوة النهارّية، وإستيراد البن. نظرا لخطورة هذا الأمر على التنمية والانتاج والسلام الاجتماعي!

في هذا الوقت بالذات وفي الجانب الآخر من بندر الوادي، حيث حط الرُّحَلْ مضاربهم، كانت بنت شيقوق في أوج فتنتها بقدها المارد، الذي إختبأ تحت دثار أسود، غطى جسمها كله، وضم داخله قدّها الملفوف وصدرها المتحفز، وتلك المأكمة التي لا مثيل لأناقتها. والتي أطلقت كل شياطين الجحيم في دماء ود التويم عندما رآها، وهي تنحني لتدخل خيمة الشايب جقندي.

إتسعت عينا ود التويم وكادتا تقفزان من محجريهما، عندما تمرد صدرها وتمادى في شقاوته العابثة الملهمة من المأكمة، التي ضاق بها فضاء الخيمة.

انتبهت بت شيقوق لنظراته التي جردت جسمها من عباءتها الفضفاضة، فسطع وجهها بغموض العذارى الخفي، وبرقت عيناها بجمر المواجد في التو واللحظة المباغتة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها، فطلبها من جقندي في الحال. ولم يمض عليه سوى أيام قلائل، حتى كان مع بت شيقوق يتجولان داخل بعضهما البعض في الوادي.

كانت قصتهما أقصر وأعمق قصة حب تشهدها مضارب الرحل، أو بندر الوادي الضائع في دهشة التاريخ، من مثل هذا النوع من المواجد الغادرة.

والده التويم ذات نفسه، لم يمر بهكذا قصة حب سريعة وحاسمة كالبرق العبادي، عندما تزوج من والدته حميرَّة، التي كانت قد جمعته بها عادة التسكع في الوادي في الأمسيات.. إذ تصادف أن حل الرحل وقتها بالوادي وكان يزورهم من وقت لآخر، ثم يمضي في تسكعاته، التي يبدأها من أرض الفجيجة، مروراً {بدبيبة سيف العشر} و{قردود الدليب} و{السهلة أم كركاع} و{دغل الحردان} و{القوز هراد اللهاة} حتى يصل إلى {سندالة الحداد} و{خروعة المجانين} على مشارف جبل كارناسي المقدس، ثم يعود ليخلد إلى النوم.

لم يكن يدري أن ثمَّة عينان متوجدتان، كانتا تتسكعان في مراقبته.. تخترقان حجب الظلام والعجاج، لتصلان حتى داره في {ضهرة الحسكنيت} كلما حل بمضارب الرحل..

كانت تلكما العينان هما عينا حميرَّة، التي كانت عندما تنعس في آخر الليل، ترى التويم يتسكع في أحلامها، مضيئا كل الفراغات المظلمة، فتحيا الحكايا القديمة وتزدهر.. تلك الحكايا التي لطالما حكتها لها جدتها. ترى شخوصها. عشاقها. عاشقاتها.. تراهم جميعا يتسكعون في الضوء الشاحب، وربما يهوون هناك حيث مركز الوسن، في غفواتها المؤجلة.

وقتها كان قلب التويم ينتفض ولا يدري سببا لذلك، (فيحنس) النَّوم. ثم لا يلبث أن يستيقظ مع صياح الديكة، فيتوجه إلى منتهى الوادي، حيث جبل كارناسي يبدأ في إلقاء ضل الضحى الشاحب.

في المرَّة الأولى وجدها هناك في أحراش القمبيل والقنا، تراقب طلوع الشمس من خلف جبل كارناسي المهيب، بذات المهارة التي يتقصى بها الرُّحَلْ الأثر. وبذات الدقة التي يكتبون بها لغتهم شديدة الشبه باللغة (المروية الغابرة).

فالرُّحَلْ لا يجمعون بالواو والنون، وليس لديهم واو جماعة، فهم يجمعون بالألف والباء. فالأب هو أصل الحياة، حتى أن المرأة نفسها خرجت منه، لذا هو ليس فرداً فهو أيضا أغلبية، إذ أن الرُّحَلْ كانوا يعتنون كثيراً بإعطاء كل ذي حق حقه، سواء كان ذكر أو أنثى..

هذا النوع من الجمع الفريد والبديع، تجده حتى في بعض المواضع التي تمر بها قوافلهم من مالحة على طريق الملح، إلى بندر الوادي ك (قوز الكتراب) الذي يقيمون فيه ليوم أو بعض يوم قبل أن يواصلوا ترحالهم...

ولا يتزوج في الرحل إبن العم من بنات عمومته أو خواله أو قريبته، فهم أمينون على عاداتهم القديمة.. و.. ولم يكن التويم لحظتها يدري أنها تنتظره هو...

كانت جالسة على الصخور حائلة اللون، وحولها الطبيعة بإيقاعات كائناتها المختلفة، تعزف لحن الخلود. المتوحد في إيقاعات أم كيكي الشجية في تهديدها الأزلي لأحزان الوازا المتوترة القلقة.

كان كلما نظر إليها في تلصصاته من بعيد، يشعر بأنها تقف على حافة شيء ما. ويداهمه شعور كالخارج عن سيطرته.. سيطرتهما.. سيطرتها.. شعور أشبه بزوبعة أو عاصفة تجذبهما إلى مركزها.. و.. وحثيثاً.. حثيثاً يحاول مناداتها، كما تحاول هي الأخرى. لكن صوت كليهما كان يخرج مشلولاً.. مكتوماً.. يغلي، منحبسا في قوقعته الصلدة. يجاهد الخروج دون جدوى.

لكن بعد ذلك حدث كل شيء بسرعة مذهلة.. كان الطريق تجاه بعضهما البعض يقصر ويشارف على نهايته.. طريق يعرفانه جيدا فطيفاهما في كل جزء منه. كانت ما أن تراه حتى تأخذ أنفاسها تعلو وتهبط.

جلس قربها، توترت. دفن يدها في كفه، فارتخت أعصابها المشدودة، وتسرَّب الخدر خرير الجدول، وبدت البرِّية.. كل البرية خافقة كقلبها البكر.

منذها أصبحا يلتقيان هناك. يقتربان ويبتعدان.. يبتعدان ويقتربان، وفي صمت ودون أن ينبس أحدهما بحرف كانا، يقولان كل شيء.

تنفجر الزوبعة داخلهما، ويحيطهما العشق بسياج أبيض من النّور النَّقي، فيشعان مثل ضوء شفاف، ممزوج في دعاش البحر الذي يداعبه القبلي، وروائح وأزهار البرِّية العطرَّة، دون أن يشعرا بأوراق الشجر الإبرية الشائكة، وهي تسقط. تخز الأرض. تحفزهما معا على العبور إلى الضفة الأخرى من الغدير.

عندما تغيب حميرَّة يمضي متسكعاً -كالعادة- في مضارب الرحل، عله يراها هنا أو هناك. وغالبا يجدها تجلس قرب الموقد في مدخل خيمتها، تحاول إشعال النار الخابية، وهي تردد تعاويذ الرحل فتشتعل كل نيران الأرض داخله دفعة واحدة.

ثم يمضي ينتظرها تخرج في الليالي المقمرَّة، إلى وادي الغزلان.. تجلس قبالة جنقل السلطان. تدس يديها وقدميها في التراب البارد، وتصيخ السمع لشاعر خفي ينشد ذات القصيدة، التي سمعتها طوال حياتها المتنقلة من مكان إلى مكان.. ذات القصيدة التي كانت تنسج خيوط خيمتها المدببة، أينما حل الرحل. تسمعها الآن في وادي الغزلان المشبع برائحة السُّعَات البري.

في الصبيحة الباردة التي قرر فيها أن يتقدم ليطلبها للزواج، وجدها تنتظره على الغدير. كانت راكعة بركبتيها تداعب الماء المنحدر من ينابيع كارناسي الخفيَّة.. وكان الماء يحفر تحت ركبتيها الأرض المبتلة بالشجن والمواجد. يتسلل ثيابها. كنفوسها. يدغدغ حواسها الرابية، ويتطاول في شقاوته فيمضي بعيداً ولطيفاً.. دافئاً وحميماً.. محملاً بأشواقِ آلافِ السنوات الذائبة في حضن المدى.

شعرت حميرة لحظتها بالدوار والخدر. فتحت عينيها وبكت. لم يسألها. كان يعرف أنه (لا يعرف) وأنها (لا تعرف) لماذا تبكي!

إنتظرته إذن في تلك الصبيحة الباكرة عند الغدير، بعد أن تسلل خفية من خيمتها في مضارب الرحل.. سحبها من يدها وأنطلقا نحو النهر. كان نداء المياه الرائعة والرائقة عند الفجر، يشدهما عميقا. جذابا. يحاصرهما برائحة الطّمي وعشبة معونة النيل. سبحا معا قريبا من القيف. ولم يتعمقا كثيراً.. في تلك اللحظات النبوّية الخالدة من الفجر الناعس.

كان الشاطيء هادئا وساكنا. لا شيء سوى الثرثرات الهامسة بين المعونة والطمي والماء. كانا كما لو هما شخصان آخران وليس بذاتيهما المالوفتان.

عادا أدراجهما بعد أن شرعت خيوط الفجر الأولى، تهدد الأفق الضبابي الفسيح بالتبدد. جلسا على القيف يستقبلان خيوط الشمس، تجففهما بهدوء وإتئاد. وضع أنفه في تجويف صدرها يتنسم رائحتها. أغلقت عينيها وأصابعه تتسلل ظهرها (تدعكه) في رفق. شعرا برجفة شعاع الشمس تدغدغ كيانيهما المتوحدان. فأهتزا كالمجاذيب.

كانت الشمس لحظتها قد بدأت تدفئ كل شئ. وكانا ساخنين جداً ك (رميضاء) دار الريح في الظهيرات الجافة القاسية اللعينة.

أفاقا من حضورهما القوي في الطبيعة البرّية حولهما، على خطى رجل عجوز. إقترب منهما. وقف قبالتهما. تهشم تراب القيف الهش تحت وطء قدميه. وأخذ يعزف لهما على أم كيكي أنغاماً مميزّة.. عنهما وعن الطبيعة وعن الناس وعن الأشياء والحب والجمال.. عن الوادي والنهر وخيوط الشمس، تتراقص فيما هما يثرثران لبعضيهما حول ما جرى في تلك الصبيحة النادرة. نظرا إلى بعضهما دون أن يأبها للنَّهر والوادي النَّمامين.

وفي الليلة الأولى لزواجهما، تذكرا ذلك. وعندما بكت كانت تعرف هذه المرَّة لماذا تبكي، فأجابته أنها في المرتين كانت تبكي حبيباً طال إنتظارها له، تتآكلها مخاوف العنوسة، في سنوات التململ بحياء العذارى الرهيب. وكلما هبَّت رياح القبلي أو الخماسين أو برق البرق العبادي ترسل نداءاتها إليه!..

كان التويم هو الحبيب المنتظر، الذي ترسل إليه نداءاتها، خلل أنفاسها اللاهثة مع عصافير آخر الخريف، أو الطيور المهاجرة عبر الواحات والوديان والصحارى، التي يقطعها الرحل، فتنتشي أنفاس الخماسين وعشبات الوديان وشجيرات الصحارى، عندما يلامس لفحها الغدران والجداول. ويستيقظ مارد الطبيعة الخفي. وتهطل أمطار العِينَّة الغزيرة. التي لا يدري سِّرها أحد. فيفيض النيل، وتحيض النساء ولا يدري أحد شيئا عن السر المخبأ في جوف الريح والصدى.

أطرق التويم في إرتباك، كعذراء يحاصرها خفر مقيم من غرباء شديدي الجُرأة والوقاحة. ثم تماسك. تخلل بأصابعه النحيلة جدائل شعر حميرّة الممشط في ضفائر كبيرة وتنهد:

"يا لكل هذا الحب!"

الغدير الذي كانا يلتقيان عنده قبل الزواج، أصبح هو والنَّهر قبلتهما المفضلة بعد الزواج. كانا يتسكعان في الوادي كعادتهما. يمضيان إلى النهر أو الغدير. يجلسان على شفته والمياه تحفر تحتهما.. يجن جنون الجدول المجاور. فيرسل

خريره المحتج بقوة. ثم يحتد أكثر.. تحمل الريح صوته. تبعثه حياً. مهذباً في أغنيات الشجن والجنون.. تحمله الخماسين إلى مجاهيل دار الريح التي يكون الرحل لحظتها على مشارفها. فتلتفت القافلة.. كل القافلة تلتفت، ومع القبلي الذي يفيق لتوه من رقدته العميقة، يرسل جقندي تحياته التي تشق الفراغ العريض، في جسارة القبلي عاشق المسافات.

كانا كأنهما يستعيدان قصص الحب العظيمة، التي مرَّت على الوادي عبر تاريخه ضارب القدم. قصص الحب التي عاشها الأسلاف الذين كانوا يهيمنون بوجودهم الطاغ، على كل مكان يتسكعان فيه، ففي كل شبر من الوادي خطت خطى الأسلاف وتركت أثرها خفية غير مرئية، لكنها حيَّة في ذاكرة الماء والفراغ والزمن والطبيعة.. المكان والشجر.. الناس والحياة...

هذه الذاكرة المتجددة في الحنين.. هذه الذاكرة... طائر الغرنوق الذي يسترق إليهما النظر الآن، هو حفيد الطائر نفسه الذي كان يختلس النظر بعشق، إلى جمال جدته ست الدار. كأنه يحدق في أفق رحيب من النسائم العليلة. هو حفيد الطائر نفسه الذي أخذ يبكي ويولول فوق رأس قطع الشك، وهو يرى المطاليق يحاصرونها..

هو حفيد الطائر نفسه الذي كان في الصبيحات النديانة يراقب ست البنات وسوميت، عندما (يفزعان) للحطب لإحياء حلقة تعليم المشردين والأهالي، وعندما ينال منهما التعب ترقدان مستلقيتان على ظهريهما تحت شجرة قمبيل، وقد حسر الهواء الشقي طرف جلبابيهما، عن ساقين بديعتين...

كان يراقبهما كما راقب أجداده جداتهم من بين أغصان القمبيل الكثيفة، وهو يصيخ السمع لأصوات أسلافه.. ولأصوات الشعراء والمغنِّين. الذين يخرجون لحظتها من مجاهيل جبل كارناسي، ويتحلقون حوله، ليضيفو إلى ماضيهم ذكرى جديدة عن المستقبل...

أنه حفيد الطائر نفسه الذي شهد ولادة الشايب الجنزير التقيل تحت {ضل الحرازة أم قد} في ذلك الغسق البعيد، عندما دهم (الطلق) أمه على نحو مباغت في تلك اللحظة، التي غردت فيها العنقاء على نحو غير مألوف، فاجتمع كل الناس دهشين لكل هذا الجمال، الذي لا تنطفيء جذوته ولا تخبو نيرانه..

سبب زواج (أبوبردة) من (مطايب) والدة الجنزير التقيل أن جده (الكشيف) رأى مطايب والدة الجنزير وهي حشيمة.. إن دخلت أو خرجت متقنعة. فجاء إلى إبنه أبي بردة وقال له:

"رأيت في قومنا الرحل فتاة لم أرى من هي أكثر حشمة وجمالا منها"

فأخبره أبو بردة أن ليس به أدنى رغبة في الزواج. لكن عندما طالت عزوبيته وخشي عليه والده الكشيف من إنقطاع الذكر. حدثه مرة أخرى. وهكذا تزوجها وحملت منه، فلما ولدت جاءوه ووجدوه راقداً في ضرا شجرة عند دبة حفير (كدنكوة).. مغطى بـ (قُفَة) من السعف والمشردون من حوله يبعدون الناس عنه ويقولون أنه (مورود). وعند إصرارهم نهض وتحدث معهم، فأخبروه. فركب لتوه (ماسكاً الدرب).

وكانت النساء وقتها قد نقلنها من تحت الحرازة إلى خيمتها.. خرجت النساء. فدخل عليها وأدخل أصبعه في فمه، فنبع منه اللبن بعد أن {ملص جلبابه وتحزم بالفركة القرمصيص وعصر ثدييه حتى درا اللبن، فريقه} منه ومكث حتى السبوع وسماه: {الجنزير التقيل}.. وذلك أن أحداً لم يستطع حمله سوى والديه وجده الكشيف!..

وعندما كان الجنزير طفلاً سأل أبي بردة:

"يا أبي لم أصل إلى حدود العلم، وقد رأيت رؤيا.. أن عندي دلو أنشل به الماء من أعماق التبلدية حدا القوز الوراني وأفرغه في حيضان رملية كثيرة فتشربه.."

فتبسم أبو بردة قائلا:

"أبشر بالخير.. إتسكنت وإتمكنت.. الناس تشيل من علمك وتفضل"

وهكذا قام الجنزير في قومه الرحل مقام جده الكشيف، الذي سمى بالكشيف نظراً لأنه يخبر الناس بما في ضمائرهم، وما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، والذي عندما دنت وفاته وهو في خيمته الفوقانية قال:

"أنا راحل من هذه الدار"

فظن قومه الرحل أنه رحيل كرحيلهم المعتاد، لكن إذا بمنادي ينادي فيهم:

"الكشيف إنتقل"

أنه رحيل كالإقامة، فللكشيف كانت تشد الرحال، وتضرب آباط الإبل وأكبادها، فقد أعطى الروح العظيمة للكشيف القبول التام عند الخاص والعام.

يحكي عنه الشايب جقندي فيما تواتر إليه:

أنه كان جسيما فرآه رجل فقال:

"جسامة بلا أكل أو شراب"

فرد عليه الكشيف:

"صنع الروح العظيمة الذي أتقن كل شيء"

كان الكشيف إخياً هدياً ورضياً.. يَصُر سبعة أحجار في طرف جلبابه. يحصي بها كلام الدنيا الذي ينطق به في يومه، وكلما نطق رمى حجراً.

في حياته لم تحدث للوادي أو الرحل أي عوجة. كان إذا تبين له أن تيراب بلاد أحد الناس مخلوطا بتيراب ليس لصاحبها لا يأكل من زرعه.

٣

كان السلطان (جبل الحديد) الشقيق الأصغر لـ (بادي) رجلاً فاضلاً في باديء أمره يتبع خطى والده السلطان الكرباج، وكانت والدته هي الزوجة الثانية لوالده، الذي كان قد تزوج من قبل من {بت أبوسكيكين} والدة بادي الشقيق الأكبر للسلطان جبل الحديد، والتي توفيت بمرض مجهول بعد ولادة بادي مباشرة.

ذات مساء بينما كان الكرباج يتفقد بندر الوادي رأى قوافل الرحل تحط رحالها قريبا من جنقله. إقترب من مضاربهم، ورأى بت أبي سكيكين، فخفق لها قلبه. فتزوجها. وأقامت في قصره دون أن يفارقها الحنين إلى قومها الرحل، بل إشتد حنينها أكثر بعد ولادة جبل الحديد، الذي نصبه السلطان الكرباج ملكا على الوادي في حياته، فقد كان يحبه كثيراً ويخشى عليه من غدر أخيه الأكبر بادي، الذي كان منذ طفولته غريب الأطوار..

وكان يرى أنه أحق بالملك لا لأنه البكر فحسب، بل ولكون أن أمه هي الزوجة الكبرى للسلطان، وهي على عكس والدة جبل الحديد، من أهل هذا الوادي وليست من الرحل، الذين كان بادي يرى أنهم أقل شأنا من أهل الوادي من جهة الحسب والنسب، وكتب في ذلك الكثير من الأشعار، التي تهجو الرحل وتمجد شعب الوادي النقي، الذي لم يختلط بأقوام أخرى!...

سيعثر أبوشوتال على هذه الأشعار الركيكة، بعد عشرات السنوات، مدونة على جُدُر كهف كارناسي، بعد أن تتراجع كل الأصوات حوله:

صوت القماري.. حفيف أوراق القمبيل.. خرير الجدول الثرثار.. دمدمة النهر المتواطئ.. وهدير شلالات كارناسي المقدس.. و.. ويصبح الصمت كقشرة رقيقة من السكون، تخدشها الأصوات الهاربة من أغوار تاريخ الرِّق والعبودية، إلى جوف الوادي المتلفع بغباش الفجر، فيشعر بادي لحظتها أنه قد عثر على كنزه الضائع.

كانت غرابة أطوار بادي، لا تتوقف عند حد، يقوده طموحه الأعمى وذكاءه الإجرامي الحاد، إلى فعل أشياء غريبة، ستظل تحكم مسيرة حياة الوادي وشعبه لعشرات السنوات!

فهو من أحيا إحدى الطوائف السرِّية القديمة، وكوَّنها من جديد. والتي خرج من رحمها الجنكويز الجدد.. كانت طائفة لم يشهد تاريخ الوادي القريب والبعيد مثلها. فقد تأسست وفقا لأفكار بادي الإباحية الشرِّيرة، التي لا تأبه لهتك الأعراض الجماعي، أمام أعين محارمهم!

كما مارست أعمال الدَّجل والشعوذَة، وفي الحقيقة كانت من الداخل تنقض عُرَى أفكار الرحل، التي بدأت وقتها. تنمو بين أهالي الوادي. خصوصا بعد أن استقر الجنزير التقيل وأوقد (تقابة) لا تنطفئ.

وقتها كانت أم السلطان الكرباج قد مرضت مرضاً شديداً فعزم لها الجنزير التقيل، ولم تشفى فقال له السلطان:

"إن كان ما عافيت أمي قتلتك وقتلت الرحل.. وإن عافيتها زوجتك إبنتي حوشة، فهي لك تفعل بها ما تشاء"..

فعزم لها الجنزير مرة أخرى فعوفيت، ولكنه رفض الزواج من إبنة السلطان، وطلب منه أن يزوجها (الإسيد) نوارة المشردين، فوافق السلطان بعد تردد باراً بوعده الذي وعد..

وبعد أن تزوجها الأسيد، أخذ يمشي إليها بعد الفراغ من حلقة التعليم التي أنشأها المشردون. فمنعته حوشة من ذلك وقالت له:

"إرحل بقراءتك إلى دارنا. القراية التبقى هنا عندنا"

لكن المشردون امتنعوا وقالوا له:

"عندها الخدَّم الحسان.. يمرقن ويدخلن.. يفسدن علينا عقائدنا، نحن لا نضمن أن نهم بهن أو يهمن بنا.. كيوسف وزليخة، لذا الأفضل أن تظل النار بعيدة عن الحطب"..

وهكذا تولت قطع الشك وبنت المنا أمر حلقة التعليم. وعندما علم الجنزير التقيل بالأمر ذهب لمقابلة السلطان وسأله:

"يا طويل العمر العندو سراج يوقدو في بيت غيرو يرضى؟"

فأجابه السلطان:

"لا"

فقال الجنزير:

"الإسيد والمشردين سراج الوادي، فليه حوشة عايزة تعوج دربهم، عشان يوقدو أماكن تانية، ويتركو البندر في الضلام؟!"..

ولم ينتظر رد السلطان. فلحظتها كان قد طار في الهواء وأختفى والسلطان ذاهل...

كان بادي والجنكويز الذين أختارهم بعناية، يقيمون تحت راية الإسيد الذي صار منهم في تعاليم الروح العظيمة خلفاً للجنزير، ولكنهم في الآن نفسه كانوا يقتاتون على مائدة السلطان. بل أنهم حاولوا في بعض الأحيان، إلصاق صفة الروح العظيمة على بعض شياب الرحل لتضليل أهالي الوادي...

عندما إكتشف السلطان الكرباج للمرّة الأولى، وجود هذه الطائفة، التي لم يكن يدري شيئا عمن بعثها ونفخ فيها الحياة. جد في البحث عن مريديها، وأحرق بمساعدة الجنزير التقيل من استطاع العثور عليه.

منذها أخذ الجنكويز يدعمون طائفتهم بمزيد من السرّية.. يكمنون حيناً ويظهرون للعلن حيناً آخر.. وفقا لتضاؤل نفوذهم، أو مدى سطوتهم، ومتى ما بان لهم ضعف في السلطنة، ينشطون لتفكيك عراها.

عندما أسس بادي في أول عهده هذه الطائفة، بعد أن بلغ الحلم مباشرة. أختار لها دار الريح مركزاً، حيث شيد هناك قلعة حصينة، أطلق عليها إسم {الحليلة شوحططت} ثم بدأ بإرسال دعاته من الخواص، الذين إنتقاهم بدقة لنشر دعوته بين عامة الناس في سرّية تامة، وكان هؤلاء الدعاة يخفون (قناعاتهم الحقيقية) حتى إذا وثقوا في تابعيهم أطلعوهم على الخفايا من أفكارهم، كتساوي الناس في النساء والأموال، وإباحة نكاح المحارم والغلمان وإشاعة اللواط.

ولطالما تعرض بعض قادة المطاليق للقتل بسبب هذه الأمور. بل تذكر إحدى الأحفورات، على جدر كهوف جبل كارناسي، أن أحد قادة المطاليق يدعى (السخيل) قتل على يد غلامه، الذي كان يدعى (أبو عقيرب). فالسخيل كان قد أسر هذا الغلام في إحدى الغزوات وأستخلصه لنفسه، وجعله على طعامه.

وكان أبوعقيرب لا يزال على معتقدات الرحل. يكتمها عن السخيل. فلما رأى الغلام مضايقة السخيل المستمرَّة له، بأن يفعل به كما يفعل الغلام بأنثى، أكمن في نفسه قتله والتخلص منه، وحانت له الفرصة عندما دخل والسخيل الحمام.

وما أن (فنقس) السخيل حتى طعنه أبو عقيرب بسكين -كان يخبئها- في عنقه وأجهز عليه، ثم خرج ليخبر أحد قادة الجنكويز، يدعى سوار. أن السخيل يريده في الحمام، فلما دخل سوار قتله أبو عقيرب أيضا، وفعل الشيء نفسه مع خمسة من قادة الجنكويز، قبل أن يكتشفوا أمره ويقرضوا لحم جسمه بالمقاريض.

فقد كان الجنكويز في عصورهم المتأخرة، قد أوجبوا قتل الغلام الذي يمتنع عن أن يفعل به سيده ما يفعله بالنساء!. وبهلاك السخيل على يد الغلام أبو عقيرب، وإنقسام السلطة بين أبنائه. خفت قوة الجنكويز وتهديدهم للحياة الإجتماعية في وادي الذهب، وأقتصرت أعمالهم على قطع الطريق، وبعض الهجمات الخفيفة لتأمين مصدر عيشهم، إلى أن قام بادي ببعث مجدهم من جديد، وجعل منهم النّواة للجنكويز الجدد، الذين يعيثون فسادا الآن!..

وفيما حملت ألواح وأحفورات جبل كارناسي، أن الجنكويز كانوا طوال تاريخهم، ينقسمون إلى فرق وجماعات، على الرغم من توزع ولاءاتها فيما بعد، على أبناء بادي. من نسائه العديدات، بعد ست الدار. ومن بعد أحفاد هؤلاء الأبناء، وأحفاد أحفاد أحفادهم. إلا أن طائفة الجنكويز في النهاية تبقى موحدة، كجنكويز يدعون الانتساب إلى (عرق نبيل مقدس) وفي الحقيقة هم لا ينتسبون سوى إلى العرق الذي أنحدر منه بادي خلقة وأخلاق!

حتى أنه على عهد السلطان (التور الجِرّق) عندما تنامت سلطاتهم وطغيانهم وأكاذيبهم، على الأهالي البسطاء، جرد عليهم التور الجرق حملة فانتصروا عليها وحاصروا بندر الوادي، وردموا مجرى العيون التي تغذي النهر عند إلتقاءها به.

لم يتركوا حجرا أو شيئاً لم يضعوه في مجرى النَّهر، ومع ذلك ظل النهر على جريانه ينحدر إليه الماء من منابعه البعيدة، فعمدوا إلى حيلة أخرى، بأن حفروا إلى جوار النهر، نهراً آخر لتغيير مجراه. تتحدر إليه مياه النهر، الذي يشق الوادي إلى

قسمين. فبذلك يعطش الأهالي المحاصرين بالجوع.. الذين عندما لاح لهم أن النهر سيجف وأن حياتهم قد ضاقت، فر منهم من تمكن من الفرار، وانضم إلى الجنكويز.. ومن لم يستطع أو من أبى تم قتله بطريقة بشعة.

ولولا أن تداعت حواضر الصعيد ودار الريح والسافل ودار صباح البعيدة، لنجدة بندر الوادي. لسقط تماماً في يد الجنكويز، ولربما دانت لهم السلطة المطلقة إلى الأبد.

وتُشير الأحفورات –وقتها– إلى أن قائد الجنكويز السخيل الذي قتله الغلام أبوعقيرب، كان قد أخبر أتباعه قبل مقتله، بأنه سيصعد إلى السماء. وأنه سيبقى فيها أربعين يوماً، وأن أخويه الجنكويزيين (أبوقصيصة) و(سوار الدهب) سيحلان محله في قيادتهم وعليهم بطاعتهما..

بث الجنكويز أحقادهم في كل منطقة وصلوا إليها. قتلوا أهلها وأستحلوا نسائها، وعاثوا فساداً ليس بعده أو قبله فساد.

وحتى الآن لايزال الجنكويز ينتظرون عودة السخيل، رغم انقضاء عشرات السنوات على الموعد المضروب؟! كان نظام الاقتصاد في الحليلة شوحططت، التي أقام فيها بادي قلعته الرهيبة، نظاما عجيباً في بعض أوجهه، إن صح ما نقلته أُحفورات كارناسي..

إذ كان المطاليق ينظمون البيع والشراء والأخذ والعطاء، الذي يتم فقط داخل حدود الحليلة شوحططت، بواسطة رصاص في زبيل. حيث تباع لحوم الحيوانات كلها من كلاب وقطط وحمير وبقر وخراف، وغيرها..

ويوضع رأس الحيوان وجلده قرب لحمه. وينسجون هناك (فوطاً) جميلة يصدرونها خارج حدود الحليلة شوحططت.

ولإهتمامهم الفائق بإقتصادهم بلغ بهم الأمر، تفقد الشاة إذا ذبحت فيسلمون (الضباحين) اللحم، ليفرقوه على من رسم لهم من أعوانهم، ويدفع بالرأس والأكارع و(الكمونية) إلى العبيد والإماء. ويجز الصوف والشعر من الغنم، ليتم تفريقه على من يغزلونه، ثم يدفع به إلى من ينسجونه عباءات وأكسية.

كذلك تفتل منه القرب والروايا والمزاود، وما كان في الجلود يصلح نعالاً أو مركوباً يُستخدم لهذا الغرض. ثم يجمع كل ذلك في خزائن داخل قلعة بادي الحصينة.

كما جمع الجنكويز –وقتها– الصبيان في دور أقاموا عليها من يرعاها، ووشموهم حتى لا يختلطون بغيرهم، ونصبوا لهم من يدربهم على ركوب الخيل وفنون الحرب والطعان، فنشأوا لا يعرفون شيئا غير ذلك.

وعندما كانت السلطة في مركز السلطنة تقوى. كان الجنكويز يكثفون من عملياتهم الإنتحارية، والإغتيالات للناشطين في معارضتهم، تحت تأثير تعاطي الحشيش، الذي كانوا يظنون أنه يعطيهم مقدماً جرعات من ما ينتظرهم من مباهج في العالم السرمدي الذي ينتظرهم.

كان مركز قيادة الجنكويز الذي شيده بادي، بين الجبال الحصينة، التي تحيط بالحليلة شوحططت. في منحنى حدود دار الريح مع الصحراء الكبرى والغابات.

وهو عبارة عن قلعة حصينة من الأحجار، فيها حديقة كبيرة ملأى بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يغنين ويرقصن ويعزفن على كل آلات الموسيقى عدا أم كيكي!؟!.

عندما أكمل بادي تشييد هذه القلعة، على هذا النحو. منع دخول أي شخص إليها، فكان دخولها مقصوراً فقط على من تقرر أنهم في أعلا مراتب الجنكويز، وكان بادي يشرف على هذا الأمر بنفسه، إذ يدخلهم في مجموعات، وما أن ينهوا تدخين ما يوفره لهم من حشيش خاص، ويفقدون وعيهم حتى يأمر بأن يُحملوا ويوضعوا في الحديقة، وعندما يعون ما حولهم يعتقدون أنهم في تلك الحديقة السرمدية، التي لم يرها أحد، وحفلت بها حكايا الجنزير التقيل!

وبعد أن يشبعون شهواتهم من المباهج المؤقتة، كان يتم تخديرهم مرة أخرى، فيغرقون في نوم عميق الأحلام..

عندها يأمر بحملهم واخراجهم من الحديقة.. ثم يرسلون إليه، فيركعون عند قدميه ويسألهم:

"أين كنتم؟"

فيجيبون:

"في الحديقة السرمدية، التي حفلت بها حكايا الرحل، ولم يرها أحد سوانا"

بعدها يرسلهم لإغتيال أعداءه.. فمن نجا منهم يعيده مرة أخرى بنفس الطريقة، إلى الحديقة ومن قتل أثناء أداءه لمهمته، تأتي مخلوقات الروح العظيمة النورانية بقيادة الغارنوق -كما يعتقد- وتحمله إلى الحديقة السرمدية، ليستمتع بمباهجها، ومن فشل يقتله بادي بنفسه.. كما فعل مع أولئك الجنكويز الذين فشلوا في إغتيال سلطان مملكة الجوار، في السافل عند منحدر النهر.

ربما أن بادي، جاء بكل هذا الشر من ذكريات طفولته المريضة، التي لطالما سفك فيها دماء الحيوانات الأليفة، واعتدى فيها حتى على شقيقه وأقرانه، حتى سال منهم (الدَّم للرُكب!).

عشق بادي السحر، والبحث في المعتقدات البائدة، التي كان يسافر طلبا لها إلى دار الريح، وما وراء الصحراء الكبرى. ولا يتوقف عند حدود تمبكتو أو كانم.

يغذ المسير شهوراً وربما ينفق ما يزيد عن العام، حتى يعود محملاً بالمخطوطات وألواح الخشب، في أحمال قافلة أو قافلتين. في كل مرة.

كما ربطته علاقات عميقة بـ(معراقيي) دار الريح (المطاميس) الذين برعوا في أعمال (الدغمسة واللغوسة الغميسة).

وعندما توفي والده السلطان الكرباج وفكر في الإنقلاب على أخيه الأصغر جبل الحديد، لم يكن ثمة شيء بقادر على إيقافه سوى إدراكه أن الرُّحَلْ الأقوياء.. (العارفين) بالأسرار الخفية، يحمون إبن أختهم من كل شر، لذا قرر أن يجهز نفسه جيداً قبل الإنقلاب من جديد على جبل الحديد، خاصة بعد أن فشل انقلابه الأول فشلا زريعا.

وهكذا أخذ يجمع الشباب الذين لفظتهم (خشوم بيوتهم) وأصبحوا جنكويزاً (لا تالي ولا والي لهم). وأخذ يدربهم في سرّية تامة، ويعدهم لليوم الموعود.

وبالفعل تحول الجنكويز إلى قوّة ضاربة. كثيراً ما حدثته نفسه أن وقت الحاجة إليها في مواجهة مباشرة ليس ببعيد.

وفي ذلك اليوم البعيد، الذي إلتقى فيه ست الدار، عندما كان قادماً من إحدى رحلاته إلى دار الريح، حيث تكمن قوته الأساسية هناك.

كانت ست الدار بت سراج البيت، تعشق الفتى عمسيب، الذي كان لا يكبرها كثيراً كبادي، الذي اختطفها في ذلك اليوم المشؤوم.. وقتها كان الشايب الجنزير التقيل، قد أخذ يعمل بمساعدة بت ود المنا على مساعدة السلطان جبل الحديد والعنتيل، على إعادة الأمن والهدوء والسكينة إلى الوادي، بعدما انطلقت عصابات الجنكويز تنهب الناس بقوة السلاح، وتحرق القرى والفرقان والزروع، وتقطع الطريق حتى على الناس الهاربين.

آخر مرّة رأى فيها عمسيب ست الدار قبل أن تختفي إلى الأبد، دون أن يعلم أحد عنها شيئاً. كان لقاءً سريعاً في وادي الغزلان. قبلها كانت قد مرّت عدة أيام، لم يرها فيها. فتناهبه القلق والخوف. وعندما جاءت، أخذ يتكلم وحده طوال الوقت، وهي تبتسم في صمت دون أن تقول شيئا، فتآكلته الدهشة.

سألها عن حالها المتبدل فأخبرته عن ذلك اليوم، عندما إفترقا آخر مرة، ومضت. وعندما رقدت رأته في أحلامها كالعادة، لكن كان حلماً مختلفاً هذه المرّة. ليس ككل أحلامها الماضية.

كانت قد رقدت وهي تشعر بتعب ودوخة وتقلصات خفيفة في أحشائها -في الحلم- عندما رأته يمسح على بطنها:

"كان وجهك معكراً. ودمعة كبيرة تتلألأ على جفنيك"

"هذا نذير شؤم ارتفع حاجباها في دهشة وواصلت:

"فوجئت في الصباح، بقطرات من الدّم على فراشي. كانت القطرات تنقط كماء (القربة).. (كنقاع) الزير، عندما قطعت جدتي خلوتي..

"وماذا قالت لك؟"

"في البدء لم تقل شيئا. مضت تتحسسني بريبة، تحاول اكتشاف ما يجري في المنابع البعيدة، ثم أرتفع حاجباها في فزع"

"أنت حامل؟ من هو؟"

"قطرات الدّم الدافئة تأتي من هناك.. من الطبقات الداخلية للرَّحم، تنقط تروي الأرض الجدباء"

"هذا يحدث أحيانا في حالات الخصب"

قالت جدتي مغلوبة على أمرها..

"لذلك غبت عني؟!"

"كنت بحاجة لأن أخلو بنفسي"

"ولم تحدثي جدتك عن ذلك الحلم"

"أي حلم؟"

"عندما كنت أتحسس بطنك والدمعة.."

"لا"

"يجب أن تحدثيها فالجدات يعرفن الكثير من الأمور الغامضة"

كان جمال ست الدار كما ظل عمسيب يشعر به دائما من جمال الوادي. وجمال الوادي من جمالها. كلاهما كانا يتماهيان في لوحة الجمال البكر للطبيعة الساحرة..

في شذى الورد والزَّهر البري ورائحة السعات والسِّعدة وكلاهما يبعث تأملهما على الخدر اللذيذ والغياب في الوجد اللا نهائي.

فست الدار هي إبنة الطبيعة.. طبيعة الوادي، كلما رأت غديراً يشدها الماء للركوع.. تتركه يتسربها هادئا ومجنونا إلى أن اختطفها بادي في ذلك المساء الحزين، وظلت لأيام تنام ملتفة على نفسها مكوَّمة. تسند رأسها الصغير بمعصم وتجفف دموعها بالمعصم الآخر.

تحلم في الأسر.. بين جدران قصر بادي.. تحلم بدفقة الضوء تتسلل دارها وتنعكس على أجفانها نصف المفتوحة وهي بين النعاس والوسن.. تحلم بعمسيب يأخذها على صهوة جواد أبيض بعيداً عن هذا القصر.. بعيدا عن هذا الوادي إلى أن تحسس بادي يوما بطنها، بعد أن لاحظ انتفاخها.

ظلت ست الدار تزور عمسيب في أحلامه كل ليلة. تجلس في مدخل وادي الغزلان، من جهة تلة (شِقيق الفار) حيث ظل ينتظرها لأيام، قبل أن يقرر البحث عنها في كل مكان.

كان طيفها يلازمه. وجهها الشاحب يتورد عند رؤيته. ترتفع حرارة جسمها وفي صدره هو الآخر، يعتلج شعور متواصل بالتهيج.

دائما يشعل طيفها كل النيران والحرائق الخبيئة، التي لا تنطفئ، فيود لو يركض ويدخل بيوت الوادي بيتاً بيتاً، ويقبل كل العذَّارى.. طيفها يقوده إلى مكانهما المفضل:

الغدير عند وادي الغزلان...

يرخي ذراعيه على كتفها فتتسائل داخلها:

"ترى هل غشي عمسيب أندابة تام زينو؟"

إذ يبدو كالمخمور وهو بين آن وآخر يتحسس عصاه التي انغرست على شفة الجدول ذي العشب الندي..

طيفها يطارده محمولاً على أصداء الأغنيات الحزينة.. الآتية من بعيد بمواويل الشجن. المحمَّلة بالأسى والضياع.. ضياعها.. ضياعه.. ضياع الوادي الغارق في المواجد والتوجدات المجهضة.. الضياع كقدر أزلي لمن لا يعرفون قيمة الحياة..

وعندما غرس بادي في تلك الظهيرة شوتاله في قلبها تماماً، كان عمسيب قد شعر بطعنة في قلبه ومرض مرضا شديداً، وعندما تماثل للشفاء وسمح له أهله بالبحث عنها، يمم وجهه شطر دار الريح، دون جدوى. وعندما عاد. كان يخرج في العشيات إلى وادي الغزلان.. يبكي إلى أن ينال منه التعب.

وبمرور الوقت كف عن البحث عنها وأنضم إلى المشردين... لكنها ظلت في الليالي المقمرَّة تخرج من بين أعماق الوادي.. تعزف على وتر الأشجان أناشيدها الحزينة، فيبكي عمسيب وجده وعذاباته، ويتعزَّى تحت ضوء القمر.. يتنفس بعمق، ويزفر عن صدره الشجن والحنين.. زفرات الأسى والعذاب، الذي سكنه منذ إختفائها الغامض...

يزفر حتى لا يتبق فيه سوى نفس ضئيل كالرَّمق، يدَّخره لأيامٍ قادمات خاليات من كل غوّاية.. أيام تجيء فيها ست الدار من غياهب المجهول.. تمشي على رمل الوادي.. تركع على الغدير العكر فيصفو، وحين تغني تصيخ عصافير الجنَّة الملوَّنة السمع.

ويمر بعض الوقت قبل أن يشعر المشردون جميعهم، بالخدر يتسلل رؤوسهم.. ويزحف بطيئاً ليغرقهم في حلم منسي، فيشعر كل منهم بنفسه كحمامات قطع الشك.. لحظتها فقط يضمون أحزانهم إلى بعضها البعض.. وفراقهم إلى بعضه البعض، ووجدهم يرتعش إرتعاشة واحدة، كوتر أم كيكي في الأمسيات الحزينة!

٤

من على قمة جبل كارناسي يمكنك أن ترى السحب المنخفضة، وهي تتعلق بالأفق. وينابيع المياه العذّبة وهي "تنز" من تحت الأرض، وتجري بعيداً، لتمتزج بالبحر الملوّن أقصى دار صباح.

من قمة جبل كارناسي، تتبدى السماء والأرض والبحر الملوّن والنّهر، في فوضى عاصفة.. يتخلق فيها الوادي في الأزل.

يقال أن سبب عظمة الشاب الجميل كارناسي، دعوة صالحة من أمه "صُبح الهنّا" وذلك أنه كان عندها قدحاً فيه دهناً مقَرَفاً، فرقه كارناسي في الأرض.

وعندما جاءت "صُبح" ووجدت دهنها يجري على الأرض جداولاً قالت:

"أللهم أجعل وليدي كارناسي وتداً من أوتاد الأرض"

فسمعت قائلا في الهواء يقول:

"آمين"

أو..

لأن والده "مضوي" حفيد الشايب أبو قرين البارك، وجده منشغلاً بجمع التراب، لسد جداول إنكسرت، فقال له:

"كلنا إنشغلنا بالدنيا"

ودعا له بقريحة صادقة فجعل الروح العظيمة البركة فيه، وخلّده. وأنتقلت هذه البركة إلى الجبل، الذي حلّت به روحه.

على قمة جبل كارناسي في ذلك الزمان البعيد، ظهرت البيضة التي صنعها الروح العظيمة من مزيج الريح والشهوة. عندما "فقعت" هذه البيضة، خرج منها طائر الغارنوق، الذي أطلق صيحة، رددت أصداءها فضاءات الوادي الرازح في العتمَة، فأحالت ليله إلى نهار.

تبدد الظلام، الذي نشأ الوادي في أكنافه لعشرات السنوات. منذها بدأت تظهر واضحة للعيان، تلك الشلالات التي تتدفق من عيون خفية، لا أحد يعرف "مبتداها من منتهاها" والتي تمضي في أخاديد عبر الشقوق "تجلبغ" حيناً وحيناً آخر "تخر" متحدرّة، حتى تصل مجاري الوديان والسهول، التي تحيط بوادي الذهب، وتتدفق بعيداً بعيداً.. إلى حدود دار الريح وتتخطاها إلى الجوار، حيث بقايا محيط المياه الواسع، الذي دفنته رمال الصحراء الكبرى، في زمان سحيق. عندما غضب الروح العظيمة على الرحل.

جبل كارناسي ظل شامخاً وغامضاً وصامداً كالطود، عبر الأزمان السحيقة. لم تهزمه ريح ولا أنواء. لم يهزمه مطر ولا حرارة شمس، ولا برودة شتاء.. حتى تلك البرودة، التي تحرق العشب والشجر!..

فيضانات النّهر، والسيول العظيمة المنحدرة من امتدادات الصحراء الكبرى، في دار الريح حتى سهول دار صباح. تلك السيول التي كانت تجرف في طريقها كل شئ، وهي تهدر في جريانها الحثيث، للإلتقاء بفيضانات النهر وأمطار الوادي الغزيرة، لم تكن تجد ما يتصدى لها سوى جبل كارناسي المهيب، الذي لم يهزمه شيء البتة. وظل أمينا كحارس وفي على بوابة الوادي، أشبه ببوابة الجنزير التقيل وطوابيه على شفاه النهر.

إذ لطالما إختبأ في كهوفه السرّية الأهالي عندما يحل بهم غضب الجنكويز أو غضب الطبيعة. ومن ينابيعه الخفيّة لم تتوقف المياه عن الجريان لتحفظ حياتهم، في موجات الجفاف والتصحر. تروي الوديان اليابسة لتخضر الزروع.

كان كارناسي حامي حمى الوادي، الذي لا تقوم له قائمة بدونه.

جبل كارناسي الذي لم يكن ثمة شيء يؤرقه، سوى إدعاء البعض، أن في عروقهم تجري دماء نبيلة مقدسة، كانت تدور حوله العديد من الحكايات الغريبة، كقصة الشاب العاشق الجميل كارناسي ذات نفسه، والذي حلّت روحه بالجبل بعد الدمار الأول للوادي.

وقتها لم يكن ثمة شيء سوى الفوضى، التي جعلت كارناسي يدرك: أن الموت هو العدو الأول للحياة، فأراد لنفسه الإنتقال أو الخلود فابتهل للروح العظيمة، أن يحوله إلى جبل، أو ينقل روحه لتسكن الجبل، وهكذا ولد كارناسي من جديد.. في رّحم الطبيعة الأم، دون أي آلام مخاض!. هذه الحكاية ضمن حكايات عديدة أخرى، حفظتها المدونات التي وجدت في معبد الكهف المقدس لجبل كارناسي.

كما تحيط بجبل كارناسي العديد من القبور المجهولة، التي لا يعرف لها أحد صاحباً أو تاريخاً. كانت قبور حيَّة.. كأنها تمتص الحياة من الطبيعة حولها، منذ عشرات السنوات. إذ عندما أنكشف لأحد الرعاة أحد القبور.. رأى جثة صاحبه لا تزال في كامل هيئتها، التي مات عليها: جسمه "الأخدر" نديان و"مفرهد"... كان بدينا ولامعاً ومبتسماً، فكفنه الرّاعي من جديد وأعاد دفنه.

البعض يعتقد أنها قبور قتلى الجنكويز، في ذلك الحصار الرهيب الذي عرف بسنة "أم شانق" لكثرة الذين شنقهم الجنكويز. فيما يصر آخرون أنها قبور ضحايا الجنكويز عبر التاريخ!

ويعتقد البعض من القلّة أنها قبور الناجون من الدمار الأول، أو أهل بيت كارناسي "ذات نفسو". الذين قضوا بينما كانوا يؤدون طقوس"جدع النار" على إيقاع الطبول الخفيّة.

وأكثر الروايات إنتشارا من بين كل الروايات حول جبل كارناسي، هي تلك الرواية عن كارناسي الشاب العاشق ذات نفسه.

إذ تفيد الرواية بجمال كارناسي الشاب العاشق، الذي إنحدر من سلالة الشايب الصالح أبوقرين البارك، الذي ألهمته الروح العظيمة أن يصنع الفلك، لينقذ قومه من الطوفان.

في فجر إنتقال روحه لتسكن الجبل. لاح كارناسي في غباش ذلك الفجر للرعاة، الذين كانوا يتحلقون لحظتها حول نار صغيرة. كان قادما من الفراغ.. في عباءة سوداء ووجه شاحب. شيئا أشبه بالظل.. راعش الأصابع، ووجهه ينضح بالحزن والعذاب.

تطلع في وجوههم بأسى.. عرفوا في هذا الأسى الرهيب بوجهه كارناسي العاشق، وأدركوا جميعا دون شك أنه لا محالة ميت، فقد كان كل شيء حولهم صامتاً صمت القبور، ويحمل نذير الموت الذي لا تخطئه أحاسيسهم الرّعوية الخالدة، التي أصبحت أشبه ببندر إستعماري عتيق.. مهجور.. كبقايا الطوابي غربي النّهر...

كان الشاب الجميل الأمرد، ذو الخصلة الطويلة كارناسي. قد بلغ من الحكمة والقوّة، ما جعله مهاباً.. محسوداً من جميع أقرانه. فقد علمه والده الفيلسوف "الشايب مضوي" العلوم والفنون وتخطيط المدن، ومباديء القانون وحسن الجوار، حتى أن المدونات التي على سفح جبل كارناسي، تؤكد مراراً وتكراراً أنه ألف كتابا في الحضارة (كتاب دالي المفقود في دار الريح) الذي لم يعثر عليه أحد، حتى الآن!

بعد أن جاء الرحل ليلملمون آثار هذا الدمار. أحب الشاب كارناسي الفاتنة "القندول" الإبنة الوحيدة للسلطان "الحرّات" والتي كان يتنافس على نيل ودها الكثيرون، خصوصا الشاب ذي العاهة المستديمة الجنكويزي المطلوق "الخازوق".

ذلك الشاب الذي إمتلأت نفسه بالضغينة، وفاضت بالأحقاد والحسد. والذي كان قد إستقرت في دخيلته، قناعة بأن القندول لن ترضى بسوى كارناسي، طالما ظل كارناسي على قيد الحياة.

وكان قد أشيع حينها حول القندول وكارناسي الكثير من الحكايا العذرية المجيدة. ولذلك قرر الخازوق القضاء عليه، ليخلو له الجو مع القندول.

وقتها كان حب القندول قد ملأ أعماق كارناسي بالحيوية، التي جعلته في فعالية دائمة وحركة دائبة، تدفقت خارجه وإنعكست على حياة الوادي الساكن، فأزّهرت الزّهور وأخضرت الأشجار، وأمتلأ الوادي بالطيور. في الوقت نفسه، كانت خطة الخازوق لاختطاف القندول قد إكتملت، بعد أن لجأ إلى بعض أصدقاءه الجنكويز.

كانت القندول تتنزه على مقربة من دارها.. أختطفوها، فجن جنون السلطان وامتلأت المملكة عن آخرها بالجند. ومضى العاشق كارناسي، يقتفي الأثر دون أن يعثر عليها. في البدء. لكن لم يكن ثمة شيء بقادر على إيقافه.

بحث عنها في كل مكان، إلى أن علم أن خاطفيها، قد عرجوا بها على أندية "تام زين".. المكان الذي لا يمكن للسلطان أو جنده توقعه على الإطلاق! حيث كان طلاب الخمر والمتعة يجلسون على بنابرهم وعناقريبهم يشربون المريسة مربوطة الزبدة، بكاسات القرع من "دلالنق وبرام" الفخار.

كان الخازوق قد خبأ القندول عند شيخة الأندية، وجلس متحفزاً.. أمامه برمة مريسة.. على سطحها"طفحّت" ذبابة خضراء كبيرة على زبدتها الطافية.. بينما كان هو يتلفت من حين لآخر، يتوقع وصول كارناسي. إذ كان يعلم أن "قلبه دليله".

وما أن خطت خطوات كارناسي مدخل الأندية، حتى نهض الخازوق يعزم عليه، ويطلب منه العفو والأمان.. ويخبره أنه نادم على ما فعله أصدقاءه ندماً شديداً.. وأنه سيعاقبهم على فعلتهم.. وأنه عندما علم بما فعلوه قرر أن يعيدها لولا مجيئه، فقد عزم على فعل ذلك حالما ينهي شرابه، وأنه لن يخبره عن مكانها، مالم يقبل عزومته.

لم يصدقه كارناسي -بالطبع- ولكنه قبل العفو عنه عندما رأى تذلله، وقبل عزومته على مضض. فقد كان كل ما يهمه: هو الإطمئنان على "القندول" أولا..

طلب الخازوق برمة أخرى، وأمر تام زين أن تولم لـ "صديقه" وضيفه كارناسي. وكان الخازوق قد وضع في اللحم الذي يأكل منه كارناسي، سم أبوالدّرق خفيّة حتى من تام زين، ولم يمض وقت طويل حتى شعر كارناسي بالصداع يجتاح نصف رأسه، ويزحف حثيثا ليزرع في خلايا دماغه ألماً رهيباً، وشيئا فشيئا كانت الدنيا تستحيل أمامه إلى ظلام دامس، بينما الأرض تدور به..

كان السم قد بدأ يسري في جسمه كله، فأدرك أن نهايته وشيكة. فأخذ يبتهل إلى الروح العظيمة طلبا للخلود، وبينما المطاليق منشغلون بالمأدبة، كانت القندول قد تمكنت من الهرب بعد أن أخبرتها تام زين، بما لاحظته على كارناسي...

كانت القندول منذ البداية، تشعر بأن نهايتها وكارناسي وشيكة، لكنها لم تتصور أن ينتهي كل شيء بمثل هذه السرعة..

هربت تبحث عن نبتة الحياة الخالدة، التي قيل لها أنها موجودة في جزيرة نائية، حيث يقيم ذلك الشايب الصالح أبو قرين البارك، الذي أنقذ قومه قبل عشرات السنوات، من الجليد والطوفان..

ظلت القندول تبحث عنه، إلى أن وجدته في مسكن صغير داخل دغل قمبيل كثيف، فدلها على مكان النبتة لإنقاذ حفيده. خرجت القندول من أبي قرين البارك، ومضت لأيام لا تلوي على شيء، دون أن تعلم أن الجنكويز يجدون في أثرها بـ "لا كلل أو ملل"..

وقتها كان كارناسي يحتضر.. يلفظ أنفاسه الأخيرة عند الجبل الذي سيحمل إسمه إلى الأبد.. كان واقفا هناك متحاملاً على نفسه، مثل موجة مد. ثم انهار كطابية من طوابي النّهر الذي يشق الوادي إلى قسمين..

كان كل شيء حوله ساكناً، ويديه متصالبتين على صدره، كشجرة قمبيل هرمة، تتكئ على القنا العجوز، في عناق ودود.

لحظتها تجمعت كل كوارث التاريخ، لتتزاحم على رأسه.. كل بقايا الحضارات الغابرة، وبقايا الثقافات المنقرضة، يتجمع الآن اسوأ مافيها: المناطق المظلمة في حياة البشر...

تجمع كل شئ، ليتبدد حلم وحيد لعاشقين التقيا مصادفة في جنقل السلطان ذات مساء بعيد. لحظتها لم يفكر سوى في الخلود في الزمن.. في الماضي.. في الحاضر والمستقبل البعيد، الذي سيحسمه الدمار الثاني..

كان قد تحوّل إلى محض ذاكرة للحنين والشجن... تحوّل إلى جبل كارناسي المهيب... مثلما هي الوديان والصحارى، حيث يلتقي الضائعون في سباسبها ووهادها، ليعيشون مزيداً من الضياع. كانت ذاكرة كارناسي.. إذن، تحلم بلقاء القندول في الخلود الأخير للضياع الأبدي..

حزن عليه أهله حزنا شديدا. رقدوا على الأرض أربعين ليلة، وأفواههم معبأة بالتمباك. ذبحوا كل دجاج المملكة ليُلفظ الدود من قبر كارناسي، وحملوا نعشه على أكتافهم بدلا عن الدواب إكراما له. و.. وصمتت نساء أسرته وكل المملكة تراقب حزنهن وتواسينهن... لم تتركهن نساء المملكة أبدا.

وبعد إنقضاء مدة "الفراش" ظللن يواسينهن لأكثر من خمسة أقمار، وفيما كن يفعلن ذلك، كان هو قد تخلص نهائياً من عذابات الإبتلاء بالحب، وإلى الأبد. تاركا الوادي للغرق في الذكريات الكئيبة لعلاقات الحب غير المتوجة، والحداد الكثيف.

على قمة جبل كارناسي، وعند سفحه.. نمت أشجار ونباتات عديدة. نسج حولها الأهالي العديد من الأساطير، كحكاية "حرب الحراز والمطر"...

فشجرة الحراز، التي كان أهل دار الريح يستخرجون منها العسل الأبيض، والتي "تَحتْ" أوراقها في الخريف، لتكون سماداً طبيعيا للأرض المزروعة تحتها وحولها. شجرة الحراز هذه التي ليس لها ظل خريفا، ليمنع النباتات من حاجتها للغذاء، كانت تنمو وتخضر وتزهر شتاء وصيفا. فترمي بظلالها الكثيفة ليسكن الأهالي تحت كنفها: لاجئين من حر صيف دار الريح "القيطوني" اللافح.

في ذلك الوقت، وفيما كان النحل يتنقل بين أزهارها، كانت هي تفكر في ترتيبات ختان أطفالها، من الحراز الصغير. خرجت عن صمتها ودعت الجميع:

النحل.. الزنبور.. الأهالي.. الطيور.. الحيوانات.. أرادته إحتفالا رائعا لا يعكر صفوّه شيء. دعت الجميع بلا إستثناء، سوى المطرة صديقتها المقربة. لخشيتها أن تفسد حفل الختان؟!.. وعلمت المطرة من الوطواط "القوال" والغراب النمام ما أزمعت عليه الحرازة.

كانت المطرة تحب الحرازة كثيرا، ولذلك قررت أن تغض الطرف عما أعتبرته إساءة لعلاقتهما العميقة، التي يجب ألا يهزها شيء مهما كان. وقررت أن تذهب لمجاملة ومؤازرة صديقتها الحرازة، وتعبيراً عن صدق محبتها للحرازة، أخذت معها أبناءها: البرق العبادي والرعد والقبلي، وإبنتيها العاصفة والصاعقة، بل وإمعانا في المحبة دعت صديقتيها الخماسين والنّوة، من تلك الديار البعيدة..

وبمجيء المطرة وأبناءها وأصدقاءها، فسد كل شيء وأنفض المدعوون. فغضبت الحرازة غضبا شديدا من المطرة، وقررت مقاطعتها إلى الأبد. لذا لم تعد تحتفي بها كبقية الأشجار في الخريف. وحدها الحرازة ظلت لا تخضر إلا في الصيف والشتاء.

وفيما يحكي الأهالي أيضا أن حرباً، إندلعت بين طيور جبل كارناسي وحيواناته، وكان الخفاش متنازعا: لا يدري إلى أي المعسكرين ينتمي؟! وعندما أعياه الأمر تفتق ذهنه عن فكرة جهنمية: قرر أن يقف مع الطرفين؟! وهكذا ذهب إلى الطيور وقال لهم:

"أنا مثلكم.. أطير.. أنا معكم.."..

ثم عاد إلى الحيوانات وقال:

"أنا حيوان مثلكم.. أنا منكم وفيكم.."..

وعندما إكتشف الطرفان لعبته، إتهمه كلاهما بالتجسس لصالح الآخر، وأن في عروقه تجري دماء جنكويزية! منذها والخفاش لم يعد يخرج إلا في الظلام، بعد أن تنام الحيوانات، وتهجع الطيور إلى وكناتها.

كذلك من الحكايات التي يطيب لأهل الوادي تداولها، نكاية في الجنكويز والسلطان: أن الروح العظيمة بعد أن بعث الحياة من جديد في وادي الذهب إثر الدمار الثالث، أمر النحلة بالنزول إلى الأرض. بعد أن دربها على الصبر، وعلمها كيف تصنع العسل، وكانت النحلة تلميذة نجيبة ومطيعة لتعاليم الروح العظيمة.

ثم أمر الروح العظيمة الزنبور، الذي كان نافد الصبر. فلم يستطع الإستماع سوى إلى نصف ما أراد الروح العظيمة تعليمه إياه، فأنطلق متوجها إلى الأرض وهو يقول لنفسه:

"لقد عرفت كل شيء"

لكنه عندما وصل الأرض وحاول صنع العسل أكثر من مرة وفشل، ورأى ما تفعله النحلة.. حينها فقط أدرك أنه لم يتعلم سوى النزر اليسير. في ذلك الزمان البعيد، أحب أهل الوادي النحلة وكرهوا الزنبور كثيرا.

مثل هذه الحكايا لا تجدها إلا على قمة جبل كارناسي وحوله، فكارناسي معبد الكهف المقدس، حزم الوادي الملتف بالأسى والوحشة. بحكايات كثيرة.

على جدر كهوف كارناسي نحت الشعراء والمغنين غزلياتهم، وسكبوا مشاعرهم وعواطفهم تجاه الناس والأشياء والعالم حولهم، وحفر الشياب الصالحين تاريخ الأهالي، وما مر بهم من كوارث ولعنات.

في قمة جبل كارناسي حطّت العنقاء وحلقت بعيدا نحو السماوات البعيدة، وكان الجبل.. جبل كارناسي قبلة الناجون في كل عصور الكوارث العاصفة، ومن كهوفه و"كراكيره" السرّية إنطلقوا يحملون أخبار ما حل بشعوبهم إلى العالم والأجيال، عبر التاريخ.

جبل كارناسي جبل غريب!

إذ لست بحاجة لأن تقرأ الأحفورات على جدره، يكفي أن تطأ بقدميك أرض كهوفه لتشعر بكل هذه الرّهبة عميقة الغور، التي تُسرِّب إليك حياة الأسلاف، من الحجر والنقش بكل وقائعها وأحداثها وكل شيء.

بإمكانك أن تشعر بكل الحيوات المنصرمة، تتخلل كيانك الراعش وأنت مغمض العينين، غائبا عن الوعي، في تأمل عميق، تدفعك إليه روح الجبل دفعا.

جغرافيا الوادي غريبة.. إذ تتدرج من الرمال على ساحل النهر، لتنتهي بالأرض القردود بإتجاه دار الريح. حيث تتخلل هذه الأرض، القيزان وكثبان الرمال. قبل أن تعود قردوداً مرة أخرى، ينتهي بطبقات الحصى الرقيقة والأرض الصخرية، فالقردود والرمال المتاخمة للصحراء الكبرى.

وبسبب هذه الجغرافيا المعقدة بالذات، لم يكن لأي كان، أن يفهم لماذا أختار الوادي -بحر إرادته- أن يضاعف من طوق عزلته بهذه الصورة، التي تفوق ما حددته له الطبيعة سلفا.

لا أحد يمكنه الجزم: لماذا ظل سكان الوادي يصرون على البقاء في هذا الوادي المعزول، الذي يقع موقعا هامشيا، حددته العزلة من كل جغرافيا العالم حوله..

هل لأنهم يحبون العزلة أم لانهم يحبونه؟.. أو هم مجبرون على البقاء في عزلتهم؟!.. فكثيرون كانوا يتشبثون بأهداب النوم، حتى لا يفاجئهم الصّحو بكوارث جديدة من صنع السلاطين أو الجنكويز. بعض الأهالي الحكماء يقولون: أن الوادي ليس معزولا في الطبيعة، ولكن العزلة تعشش داخل الناس، لذلك يرون كل ما هو خارجهم معزولا مثلهم. عن هذه العزلة عبر أبونافلة والتنقار ومغنين كثر، بالعديد من المرثيات البائسة.

التنقار ككل أهالي الوادي ولد في إحدى أصقاع الصعيد من أبوين عابري سبيل تقطعت بهما السبل.. نشأ وترعرع في وسط الجبال والغابات الإستوائية والأمطار الغزيرة طوال العام. ولد لأب مهاجر من السافل وأم مهاجرة من دار الريح، وفي كنف حياة الناس البسطاء نمّت مدركاته وتشرب بالهدوء والإعتزاز بالنفس والحساسية المفرطة.

وكان للطبيعة الخلاقة وبساطة الناس وجمالهم، أبلغ الأثر في تكوينه كمغن بديع. ما أن شارف سن البلوغ حتى ارتحل مع أسرته إلى بندر الوادي. حيث تنقل هناك في العمل بالحدادة وتجليد العناقريب والبنابر وأصاب ثروة كبيرة.

وعندما أغار الجنكويز على السافل وهرب الرجال تاركين نسائهم وبناتهم خلفهم.. اللاتي لم يكن لديهن الإستعداد لرمي أنفسهن في النهر. فأستحلهن الجنكويز، ولم يبق ثمة عنقريب في السافل لم يتحطم تحت وطء "الرفسي والدفسي" فازدهرت بذلك تجارة العناقريب!

إذ أن كثيرون في مختلف أنحاء البلاد الكبيرة، غيروا صناعاتهم وتجاراتهم، وأصبحوا جميعا إما صنايعية عناقريب أو تجار عناقريب يتم تصديرها إلى السافل. بل اخترعت علوم ومعارف مختلفة محورها العناقريب، حتى أصبح حلم الأطفال الصغار، أن يصبحوا نجارين عناقريب عندما يكبروا. فإزدهار تجارة العناقريب غير من أوضاع الأهالي الإقتصادية في تراتبية المجتمع، فعندما يقول لك أحدهم بفم مليان:

"أنا تاجر عناقريب"

فهذا يعني أن "الكلام كمل!!".. فهو من أعيان البلد ووجهائها، حتى أن مغنين كثر على رأسهم التنقار وأبو نافلة غنوا لتجار العناقريب. وخلدوا العناقريب ذات نفسها في أغنية شهيرة حملت إسم "العنقريب" ظل الأهالي يتداولونها لعشرات السنوات، بمحبة وتقدير شديدين.

في ظل هذا المناخ الذي إزدهرت فيه تجارة العناقريب، أصاب التنقار ثروته. التي مكنته من التفرغ التام للغناء وتغشي الأندايات واقامة أمسيات الطرب.

أعجب التنقار إعجابا خاصا بأم كيكي والربابة والوازا.. كان صوته جميلا ودوره بارزا في مزج الآلات الغنائية، لمختلف بيئات البلاد الأسيرة. لكنه مع ذلك ظل محافظا على أنغام وإيقاعات وألحان الغناء القديم، وخاض بهذا الخصوص صراعا شرسا ضد أبونافلة، الذي كان يبشر بالتجديد. وأخذت تجاربه التحديثية تنتشر، مما زاد في إيغار صدر التنقار ضده.

٥

مثل كل مرة.. إثر كل دمار، تخرج حياة الوادي من النّهر كذكرى قديمة، في لا شعور أسلاف الأهالي، قبل أن يخرجوا إلى الوجود. عندما كانوا محاطون بالمياه في أرحام أمهاتهم.

وادي الذهب ككل الأماكن، التي تتعرض للخراب والدمار، يقع بين عالمين:

عالم الروح العظيمة، ومملكة الأوهام وأضغاث الأحلام. فوادي الذهب كعالم أرضي متغير بتغير الزمن الكوني، معقدا في تعاقباته. التي ليس فيها سوى ثابت واحد هو "السلاطين" كمرادف "للجنكويز"...

هذه اللازمة الأزلية، نشأت في الصراع الأول وأخذت تتكرر في وادي الذهب من آن لآخر، لتشي في كل مرة بدمار وشيك، وككل مرة لا يجد الناجون سوى بقايا خرائب، لما كان يطلق عليه يوما "وادي الذهب" وربما بقايا ألواح فخارية، حفظت شيئاً من حياة الوادي السابقة، أو أحفورات على كهوف جبل كارناسي، تحكي عن الفجيعة والحياة.

ومع ذلك في صباحات الصيف الرائعة، التي كانت تمر على الوادي يتنادى الأهالي.. كل الأهالي: الرعاة، الحرفيين، التجار، الباعة المتجولين. ينتشرون على طول الوادي.. في امتداد شاطيء النّهر.. يستمتعون بنسائم الصيف الباردة، يحملها دعاش النيل ويلقيها رزازاً على وجوههم المنهكة.

كان الوادي حينها يبدو أشبه بالمهجور.. خالياً.. ساكنا لا حركة فيه، فكل النّاس وقتها على شاطئ النّهر، حيث يلتقي العشاق، ويمضون مبتعدين قليلاً عن الزِّحام، ليتبادلوا همساتهم الحميمَّة. وربما يختلسون قبلات سريعة، خفيفة. ويتعرّى الأطفال وهم يزحفون على بطونهم، فيما يرمي البعض بأنفسهم في النهر.. يسبحون ويمرحون كأنهم خلي البال، لا يشغلهم شاغل من هموم الوادي.

حياة الوادي عادة في كل الفصول، تبدأ في الصباحات الباكرة. حيث تعبر النساء "شارع الهوى" إلى سوق العطارين:

المكان الذي يعكف فيه الأطباء البلديين، على صناعة العقاقير، التي تجعل النساء ممتلئات وملفوفات، وذوات مؤخرات وأوراك وصدور، وربلات سيقان ممتلئة. وإذا فشلت هذه العقاقير في أداء ما يتعين عليها أداؤه، بإمكانهن في هذه الحالة، أن يقصدن "سوق الشباب" حيث صنايعية حشيات الجلد، الذين يلاحظ أنهم طاعنون في السن، ما يشي بخبراتهم الكبيرة والعريقة المتوارثة، في صناعة الأرداف والصدور المتقنة، التي يبذل الدباغون المهرّة مجهودات جبارة لتنعيمها بحنان فائق...

"شارع الهوى" يتفرع منه درب يفضي إلى سوق الليمون، والنعناع والفواكه. المكان الذي يفضله العشاق طلبة المتعة العابرة، الذين لا يأبهون للعلاقات المقيمة. وليس بعيداً عن هذا السوق، سوق البروش.

حيث يصنع الرجال والنساء العجائز، البروش والنطوع التي تستخدم لأغراض مختلفة، بدء بـ "دخان العروس وكبرتتها" مروراً بليلة الدخلة، وإنتهاء بالولادة والطهور..

عادة الفتيات العازبات، كن لا يرتدن هذا السوق، لكن لوحظ في الأيام الأخيرة التي سبقت الدمار الرابع بقليل، أنهن أصبحن يرتدنه بكثرة.. هذا السوق يجاور سوق الملجة والحداحيد والجلادين، الذي تباع فيه الخضروات الطازجة والفراريج، والذي يصنع فيه الصناعيون السكاكين وأدوات الزراعة والحرب، والسروج ولبد الحمير والعناقريب والمراكيب، كما ينشط فيه عمال النسيج والسرماطة. وهو سوق متاخم لجزارات السمك والكمونية واللحمة ودكاكين الفسيخ والتوابل والبقول.

من قلب هذا السوق تماما يخرج درب متعرج يفضي إلى العصاصير، حيث تعصر زيوت السمسم والفول وبذرة القطن. يجاور سوق العصاصير فراشين وفراشات المأكولات والمشروبات، وباعة السبح والطواقي والجزالين، لكن أكثر ما يميز هذا السوق، هو بائعات الفول المدمس والتسالي والطعمية، وأمجغوغة وأمجنقر، والأرز الذي بدأت زراعته تنتشر حديثا على جروف النّهر.

بعض الأهالي في الصبيحات الباكرة، عندما لا يقصدون السوق، كانوا يقطعون الساحة. التي تتوسط بندر الوادي، والتي لولا الأشجار، التي تحاصرها من الجانبين، لبدت كبيرة جدا بالنسبة لبندر الوادي كانوا يقطعونها بإتجاه النهر.. يعبرونه إلى الضّفة الأخرى، لزيارة سيدي الجنزير التقيل، وأضرحة شياب الرُّحل الآخرين، الذين يحكي عنهم أهل الودي في الصلاح -في الحقيقة- حكايات مفزعة تجعل الكوابيس تطارد سامعيها ليلاعندما ينامون.

آخرون يركبون المراكب، التي تربط ضفتي النّهر، للإتجار ببضائعهم على الضفة الأخرى. وسط غناء المراكبية المسطولين بالبنقو.. الذين يطلقون أشرعة أفكارهم ومراكبهم للرِّيح...

في الوقت نفسه من هذه الصبيحات الباكرة يتوجه بعض سكان الوادي المزارعين والرعاة، إلى مزارعهم أو يهشون مواشيهم ويعتنون بزروعهم.. ويمضي أطفالهم على مقربة منهم لرعي الأغنام بين المنحدرات خلف جبل كارناسي، بينما يمضي أصحاب المهن الأخرى لفتح دكاكينهم، التي على أطراف الساحة التي تتوسط بندر الوادي.

حتى النساء كن في بيوتهن يؤدين عملا ما، فهن إما يطبخن أو يرتبن الدار، أو يشغلن فراغهن بالنّول و"المترار" يغزلن القطن، و ينسجن منه شيئا من إحتياجاتهن..

أو ربما يصنعن من السعف ما يحتاجنه من أغراض عديدة، تتعلق بالمطبخ أو حفرة الدُّخان أو الحنّة أو المشاط. الوحيدون الذين "لا شغلة ولا مشغلة" لهم في الوادي، سوى تعكير صفو الأهالي البسطاء كانوا هم المطاليق. حتى العجائز القاعدات كن يصنعن القواطين من القطن لفوانيس "حبوبة ونسيني" و"شملات الدّخان" من الشعر والصوف، وغيرها من أشياء لا غنى لحياة الوادي عنها..

ومن المعالم الأكثر بروزا في الوادي، تلك المعالم غير المحسوسة. التي حفظتها ذاكرة الأهالي عن الدمار الأول، عندما غضب الروح العظيمة من ذلك الشعب، الذي تصوره بقدرته وأتى به إلى الوجود بكلمته الآمرة، فجعل الثلوج والأمطار مدرارة من السماء لأربعين يوما وليلة، فحدث طوفان عظيم غمر الأرض وأهلك الناس.

ولولا الرؤية التي رآها الشايب أبوقرين البارك، والتي ألهمه بها الروح العظيمة، بأن يبني فُلكا عظيماً يأوي إليه وأقرباؤه وأصحابه، وأن يختزن فيه زاداً من اللحم والشراب، وأن يأخذ من كل كائن حي زوج، وأن يبحر متى ذاب الجليد وتوقفت الأمطار وأنحسر الماء.

أبحر أبوقرين البارك لأيام طوال، ثم أطلق سراح الطيور، التي عادت بعد أن فشلت في العثور على يابسة. ثم أخذ يعيد إطلاقها يوما بعد يوم، إلى أن طارت ولم تعود إلى الفلك، فعلم أنها وجدت اليابسة. فأبحر بالإتجاه الذي طارت فيه، إلى أن رسا عند شاطيء وادي الذهب.

وفي الحقيقة كان الفلك يبحر على نحو دائري.. يعود للنقطة التي أبحر منها...

كان الماء قد إنحسر عن وطن أبوقرين الغارق. هبط أبوقرين على أرض الشاطئ، الذي ستسبح ست الدار وعاشميق فيه بعد عشرات السنوات، وسجد على يابسته شكرا للروح العظيمة، ثم مضى هو وأهله يتوغلون في ما كان وطنهم الأم قبل الطوفان، ومضى يرقم التاريخ.. تاريخ الدمار الأول، حيث توحد الجنس البشري و"تفرتق" شذر مذر.

بنى أبوقرين البارك مذبحا صغيراً، قدم فيه قرابين الشكر للروح العظيمة، ثم مضى وأهله يتوغلون أكثر في الوادي، وعند جبل كارناسي المهيب، كتب أبوقرين كل شيء يعرفه من المبتدأ إلى المنتهى. فقد نزل على أبوقرين لحظتها فيض الروح العظيمة وعلمها، فنقش على جدر كارناسي علوم الأولين والآخرين، وكل أخبار الأمم الماضية. من غير أن ينظر في كتاب. فالروح العظيمة منحته كاريزما، جعلت الناس يجلسون بين يديه كالأطفال.

ومما وجد على جدر كارناسي، أنه قبيل الطوفان بقليل جاءه أحد الأهالي، وكان قد قتل جنكويزاً للسلطان وخاف إنتقام السلطان منه. شال أبوقرين "عكازه" وقال لمن معه من الأهالي:

"أمشاكم معاي للسلطان وحرّم عفوه على الزول ده علي"..

فلما وصل ودخل حوش السلطان وولج عليه "الضرا" رأى فيه السلطان أول ما رأى أسداً أنيابه بارزة بشكل مخيف. فلم يستطع قول أي كلام "بطال".. بل رد على سلامه بأحسن منه، وعفا عن الرجل، رغم أنه كان غاضبا منه. كان العلم يمشي طلباً لأبوقرين البارك دخاخين دخاخين..

ألهمت هذه الحكاية رواد الأندايات، فكانوا يسكرون وتفوح من عرقهم رائحة المريسة الغاشمة، فيغنونها بالربابات وأم كيكي والدلاليك، فتجيبهم الوازا في تردد. فقد كانت الفوضى العارمة هي ما يخرج من موسيقاهم، التي تخرق فضاء البندر المغضوب عليه والضَّال. وعندما يسمع السكان هذا الأنين الملتاع، في فوضاه المعذبة ترتج أدمغتهم، ولا يستطيع أحد الوصول إلى داره. إذ يبدو كالجميع، مضعضعا ومترنحا ومدفوعا بالهجر والإغتراب، والنفي الأبدي في الذات والجغرافيا.

وقتها ظهر أشخاص غريبو الأطوار. عاطلين عن المواهب. لديهم آراء عجيبة في كل شيء. أدمنوا الحديث عن عيوب هذا الغناء ومحاسنه، وعيوب تلك الأغنيات وهذه.

كانوا حيارى بائسين يبحثون عن موطئ قدم في مجتمع بندر الوادي الحزين!.. في هذا الوقت نفسه بدأ بعض الناس، الذين بلغ بهم الإستياء من كل شيء حولهم مبلغه، التسلل من وادي الذهب والرحيل بعيداً، إلى أقصى السافل حيث مملكة الجوار.

هؤلاء الناس لن يلبثوا إلا قليلا حتى يتحولون إلى معارضين للسلطان والجنكويز في وادي الذهب من على البعد. لقد تحوّل الكثيرون آخيرا إلى معارضين إفتراضيين ورُّحل ومهاجرين ومغتربين ومنفيين.

كوّن البعض من هذا المزيج، جماعات مسلحة لخوض حروب رهيبة ضد فكرة بندر الوادي من الساس للراس... هؤلاء الناس هم أنفسهم من إختلفوا مع جقندي، حول تحريم أو تحليل التمباك والخمر والقهوة، وأباحوها لأنفسهم بفتوى متوارثة من "الإسيد" الذي قال بطاعة السلطان. وبما أن السلطان يستعمل المكيفات ويرتكب الموبقات فلا ضرر ولا ضرار. "بالضرورة". وأفتروا على الجنزير التقيل أنه كان يشرب المكيفات، وسردوا في ذلك الحكايات والروايات. حتى أن أحد الأهالي، وجد جقندي واقفا أمام ضريح الجنزير ذات مرة، فسأله عن ذلك فأجابه الجنزير التقيل من داخل قبره أن:

"ليس له ناقة ولا جمل فيما يقال عنه وأنه لم يقل ولا شيتين"...

لكن الجنكويز أصروا أن سؤال الميت لا يترتب عليه حكم، بينما المتحدثين في وحول محاسن الغناء ومساوئه في الأندايات، قالوا أن الفتوى في مثل هذا الأمر تنقسم إلى نوعين يعتمدان على زاوية نظر الشياب الرحل الصالحين: فمن شياب الرحل نوع ينظر في اللوح، فإنه لا يتغير ولا يتبدل كالشايب جقندي، ونوع ينظر في ألواح المحو والإثبات التي عددها ثلاثمائة خمسة وستون -في طبقة أخرى ثلاثمائة ستة وستون- فإنها تتغير وتتبدل، فإذا أخبر بكلام ولم يقع "كنبؤة الطوفان" أو "الدمار الرابع" فلا ينكر عليه بأن يقال "كذب" بل يحمل على أنه نظر في لوح المحو والإثبات. كما كان يحدث مع الجنزير، وبالتالي هذا شأن أمر القهوة والتمباك والخمر والشاي والأفيون والحشيش والبنقو...

٦

دار الريح التي كانت تعيش رعبا دائماً، من أهوال الطقس والفصول. وأحزانها وجراحاتها العميقة. بدلاً عن التبدد كانت في حالة تجدد دائم.

كانت دار الريح منهكة بفعل حروباتها الداخلية، بسبب الفتن. التي كان يشعلها الجنكويز، خشية أن تنهض دار ريح أخرى، توجه الكثير من إمكاناتها لتنمية نفسها وتطوير قدراتها، فتكون بذلك قوِية..

لذا كانت الإمكانات المهولة لدار الريح، تدخل في خزينة بندر الوادي، وهذه الإمكانات نفسها ظلت على الدوام، هي السبب المباشر لإستهداف سلاطين الوادي ومطاليقه لدار الريح، بالفتن. التي غالبا ما تؤدي إلى حروبات بين عشائرها المختلفة. ليس هذا فحسب، بل ظل سلاطين وادي الذهب، يطلقون يد الجنكويز فيتحالفون مع القبائل والعشائر ضد بعضها البعض، وصل بهم الأمر أحيانا إلى الإستعانة بقبائل تائهة في الصحراء الكبرى.. لا موطن لها.. بعد أن فقدت موطنها في الجوار البعيد، منذ عشرات السنوات، ووعدوهم لوقاتلوا إلى جانبهم ضد شعوب دار الريح، بتوطينهم فيها ليغيروا من توازن خريطتها السكانية.. خصوصا أن دار الريح الشاسعة مترامية الأطراف..

المفارقة أن العشائر التي يستجلب السلطان والجنكويز، قبائلا بكاملها من مجاهيل الجوار ليقاتلون معه ضدها. ليس لهم وطن آخر سوى دار الريح، منذ خلقها الروح العظيمة، وأصبح هناك وطن إسمه دار الريح، فأين يذهب هؤلاء؟!..

فهم لم يتعرضوا للإغتراب أو النفي عن بلادهم يوماً، كما أنهم ليسوا مهاجرون من الشرق السعيد. وليس بالإمكان أن يعيشوا كفروخ وفرخات، فهم أصحاب أرض. ولديهم وطن أزلي هو "دار الريح" وليس مقبولاً أن يستعلى الغرباء عليهم، "ويقلون أدبهم".. وهم في الواقع -تاريخيا- دخلاء ومهاجرين تنكروا لحسن الضيافة..

ما الذي يجري في هذا الوادي اللعين والمغضوب والضال. "مغلظة!".

السياسات التقسيمية التي تبناها الجنكويز والسلاطين، هي السياسات نفسها التي طبقوها على السافل الأقصى، عند حدود مملكة الجوار ودارصباح البعيدة، حيث تشرق الشمس. والصعيد الأبنوسي الجميل.. وربما ذلك لعداء الجنكويز للون الأسود مع أنهم قوم سود في الأساس.

فالأبنوس ملك الأشجار لونه هو ملك الألوان، فالألوان في إجتماعها الشهير الذي يعرفه القاصي والداني، "قدر ما فكرت" لم تجد لونا يتزعمها غير الأسود. كما أفتى التنقار من قبل وأبو نافلة من بعد، رغم إختلافهما في التحديث أو المضي على سيرة الأولين.

إذن أصبح وادي الذهب هو تلك البلاد الكبيرة "الملطشة للمطاليق الجنكويز" ولكل من هب ودب.. والملطشة للسلاطين الفارغين، الذين يتعيشون من ذكريات أسلافهم البائسة، التي تبتدي بتجارة الرقيق ولا تنتهي بتجارة العناقريب!.. مما يجعل الروح العظيمة أكثر شفقة ورأفة بهؤلاء القوم البؤساء..

وادي الذهب الآن.. هو تلك البلاد الكبيرة الأسيرة، التي لم تعد كما كانت إذ أصبحت تسبح في نهر من الحروب والإنقسامات الداخلية، وبحر من الدماء. تمخض عن مشردين ومشردات لا عد لهم ولا حصر.

ولم يكن هؤلاء المشردين من مركز السلطة في البندر، بل كانوا دائما من أطرافها في إتجاهات القبل الأربعة، حيث الحروب التي أشعلها السلاطين والجنكويز، وحيث المجاعات والأوبئة..

وهكذا من النظرة الأولى، كان لكل ذي بصيرة أن يرى بوضوح، أن وادي الذهب لم يعد له مستقبل على الإطلاق، وأنه بإنتظار نهايته الوشيكة، التي هي ليست سوى مسألة وقت ليس إلا..

كان بندر الوادي كما أعتاد دائما عبر تاريخه المديد، يبدو خادعا للذين يزورونه لأول مرة، بل ويبدو خادعا حتى لأهالي كثر، وذلك بسبب التغييب التام.. ذلك الستار السميك من الظلام، الذي نصبه المطاليق بين بندر الوادي وحقيقة ما يجري في دار الريح.

العقلاء الذين كانوا يحرصون على لقاء التجار، الذين يقصدون بندر الوادي، عابرين دار الريح في طريقهم من مالحة إلى دار صباح. هؤلاء كانوا يمدون عقلاء دار صباح بالأخبار، وما شهدوه بأنفسهم من وقائع وأحداث وجرائم، ترتكب ضد أهالي دار الريح البسطاء العزل المسالمين، من إغتصاب للنساء وقتل وتشريد وحرق للقرى والفرقان، وهو الأمر نفسه الذي لطالما فعله الجنكويز في الصعيد من قبل، وأدى لإنفصاله التام عن الوادي.

وادي الذهب أصبح مكانا غريبا، فشيوخ مجلس السلطان الذين كانوا يفتون في كل ما يتعلق بالعقائد، كانوا يفعلون كل المنكرات جهارا نهارا، ويزعمون للناس أنهم يفعلون ذلك كيما يشعرون بالإضطهاد وإزلال النفس، فذلك يقربهم للروح العظيمة أكثر؟!...

كانوا يرقصون خلف التنقار وعندما يستبد بهم السكر والطرب، يأتون بالأمور العظام. لم يكن ثمة فرق بين مجلس السلطان والأندايات. في البداية أنشأ الجنكويز الأندايات، على أطراف الوادي. لكن سرعان ما زحفوا بها إلى قلب البندر، حتى لم يعد الأهالي يميزون، بين دورهم وبين الأندايات. أصبحت أدق أخبار السلطنة وأسرارها، وصفقات التجار وكل شيء يدار من الأندايات.

وهكذا ظهر نوع غريب من الغناء والشعر، برع في أداءه أبو نافلة. بل وفي تطور خطير، أخذ الجنكويز أنفسهم يدعون الإعتقاد والتقيد بتعاليم الروح العظيمة أكثر من ذي قبل، فيما كانوا يمارسون كل موابقهم بإسم هذه التعاليم ذات نفسها.

كل شيء كان يسبح في فوضى عارمة، فقد إمتلأ الوادي بالأندايات، التي أصبح الناس "يهايتون ويبايتون فيها"..

عندما ينظر أي مراقب إلى إيقاع الحياة، في بندر الوادي، ليس بإمكانه أن يتصور فداحة اللعنة، التي أصاب بها السلطان ومطاليقه دار الريح، البعيدة عن أسماع وأبصار الأهالي، الذين ينهضون كل صباح.. يفتحون أسواقهم ودكاكينهم، أو يمضون لممارسة الزراعة والرعي، في حياة تبدو طبيعية تماما. لكن في الحقيقة كان ذلك من أكثر الأمور خداعا، والتي برع فيها الجنكويز، بصورة كشفت عن مهاراتهم العالية في التقليل من شأن الكوارث المدمرة، والتغييب التام في وضح النهار والشمس في قبة السماء!

فتح الجنكويز أبواب بندر الوادي واسعة أمام تجار القبل الأربعة، بل وجاءوا من ممكلة الجوار في السافل، بملايين البشر لتوطينهم، وهؤلاء القادمون من مملكة الجوار، كثيرون جدا يفوق عددهم أضعاف المرات سكان السافل، حتى أنهم لن يضاعفوا النسل في السافل فحسب، بل وربما ينعشون تجارة العناقريب من جديد في كل أنحاء البلاد الأسيرة.

إذن باع السلطان وجنكويزه أراضي السافل كلها للجوار، وأنتشر التجار الطفيليين والأطفال الطبيعيين، فنسوة كثر كن ينجبن أطفالا مشوهين لديهم أربعة أقدام أو ثلاثة أياد أو خمسة عيون وأذن واحدة.. تجاوز سوء التوزيع حتى الأعضاء التناسلية والمؤخرات والصدور...

هذه الظواهر الغريبة الفريدة لم تشعل نيران الأسئلة في نفوس الأهالي الطيبين، الذين كان كثيرون منهم منشغلون بأمر الأغنيات التي يرقص السلطان عند سماعها، إلى أن أطلق عليه البعض لقب "السلطان الراقص".

وكذلك ذلك الصراع التاريخي بين التنقار وأبونافلة. كان كثيرون منهم يشعرون بنشوة ما بعدها نشوة، وهم يغنون تلك الأغنيات الموروثة عن بادي، والتي يدعي فيها وعشيرته نبالة ونقاء عرقي غير مسبوقين دونا عن عشائر الوادي الأخرى.

٧

تأمل الشايب جقندي سيرته ومسيرته، هو الذي في بادي أمره أنكر عليه الناس، وأفتروا عليه الكذب وأتهموه بقول الزور والبهتان، وفي آخر أمره يشهد الدمار الوشيك. سأله ود التويم:

"بم يموت المرء؟"

فقال:

"على ما عاش عليه"

"وبم يبعث؟"

فقال:

"على ما مات عليه"

وأضاف:

"أترضى أن تلاقي الروح العظيمة بمزمار من نار؟"

فأجاب ود التويم:

"لا"

"إذن جهز قومك للرحيل عن هذا الوادي الضّال"

نهض الشايب جقندي من على قيف النهر. حَتَ بقايا التراب الهش والقش العالقين بثيابه. مد بصره على الأفق اللامتناهي، ومضى بإتجاه بندر الوادي مخلفاً كل الذكريات وراءه..

هناك خلف عشبة المعونة الطافية على سطح الماء. مضت خطواته تنطفيء وهو يبتعد شيئا فشيئا. كان بمظهره المخذول، يشعر بنفسه خاوياً ومهجوراً في عزلة النهر والوادي القفر.

أخذ يتفحص كل الأماكن التي يمر بها:

وادي الغزلان، الفجيجة، جُنقل السلطان، الساحة التي تتوسط بندر الوادي، سوق العناقريب والجلود...

لا شيء سوى العزلة الغارقة في لفح الهواء لأوراق الشجر الجافة..

العصافير الوسنانة، الراغبة عن قيلولاتها.. في أعشاشها بين أغصان القمبيل الكثيفة على غير عادتها، ففي مثل هذا الوقت كانت عادة، تخفق بأجنحتها تحت شمس الصباح الساطعة، التي يكون أتونها حينها قد بدأ في الإشتعال...

كان احساس جقندي إذن قد بدأ في الإنتقال لا للأماكن التي خلفها وراءه فحسب، بل حتى بيوت (الجالوص) المتهرئة ومساكن القش والدروب الضيقة...

كان الهدوء التام إذن هو ما هيمن على بندر الوادي في تلك الصبيحة الفاجعة!

تمت.

أحمد ضحية

برينسس آن، ميريلاند